الفصل الثاني

أصداء وأحداث

١ ــ غياب شعر الحنين .
٢ ــ في ظل حكام دمشق .
٣ ــ في كنف عماد الدين زنكي .
٤ ــ في الأرض المحتلّة .
٥ ــ في دولة نور الدين محمود .

obeikandl.com

obeikandl.com

أولاً ، غياب شعر الحنين :

في هذا الفصل ، سنحاول أن نتتبّع شعر ابن القيسراني تتبعاً تاريخياً متسلسلاً مع الزمن ، مع الانحصار في دائرة العلائق مع الصليبيين دون غيرها لنستبين أثر هذه العلائق في شعر الشاعر ، في حالتي الحرب والسلم على السواء .

على أنّه يجدر بنا قبل أن نورد الأصداء الأولى للحروب الصليبية في شعر ابن القيسراني ، أن ننبّه إلى ظاهرة تسترعي النظر : تلك هي خلو هذا الشعر من أيّ حنين إلى البلد الذي تفتحت فيه عيناه على الحياة – عكا – أو البلد الذي كانت فيه مرابع صباه – قيسارية . ولقد كنا نتوقع من شاعر أُجلي عن موطنه بالقوّة ، نتيجة عدوان خارجي قاسٍ ، قُتّل فيه الناس دونما تمييز ، أن تبقى صورة وطنه المغتصب عالقة في ذهنه ، وأن يعبّر في شعره عن حنين إلى هذا الوطن ، وتفجّع على فقده . وإذْ يتنبّه الدارس لهذا الأمر ، لا يجد في تعليله إلا مجموعة من الافتراضات ...

فقد يكون عامل السنّ هو السبب . فمعروف أن الشاعر قد غادر عكا إلى قيسارية طفلاً ، ثم أكره على الخروج من قيسارية فتى يافعاً في حدود السادسة عشرة من عمره ، إذا كان قد غادر المدينة بُعَيْدَ سقوطها في أيدي الصليبيين عام ٤٩٤ هـ . فهل تكون هذه السنّ المبكرة هي التي حالت

دون ادراك ابن القيسراني لمعنى الأرض والوطن ؟ ذلك مجرّد احتمال . إذ إن روابط الإنسان بوطنه تكون قد بدأت في التكوّن في سن الصبا ...

وقد يكون الشاعر في أيام صباه ، لم يكن قد بدأ في نظم الشعر ، أو أن ما نظمه في تلك السن المبكّرة ، لم يَعُدْ أن يكون محاولة فجّة لنظم الشعر ، فآثر هو ألا يذيع نتاجها وينشره ، وبالتالي لم يصلنا منه شيء . غير أن ذلك ينبغي ألاّ يحول دون نظم ابن القيسراني شعراً في الحنين إلى موطنه الذي نشأ فيه ، بعد أن اشتدّ ساعده ونضج شعره في سنوات لاحقة لهجرته ، فذكريات الصبا من أعز ذكريات الإنسان . ولقد كانت ، وما تزال ، حافزاً على الانتاج الفنّي ...

وقد يكون . ابن القيسراني نظم شعراً في موطنه المسلوب ، ولكن لم يصل هذا الشعر إلينا ، لا سيما أنه قد ثبت لنا بصورة قاطعة ، أن ما بين أيدينا من شعر ابن القيسراني ، لا يمثّل مجموع ما نظمه من شعر ...

وثمّة تعليل قد يأخذ به من يتقبلون افتراض « كارل بروكلمان » بأن الفرسان النصارى الذين وفدوا في الحملات الصليبية ، قد اعتُبِروا مجرّد منافسين مزعجين للسلاجقة الأتراك ينازعونهم على سوريّة[1] . ذلك أن هذا الافتراض ، قد يوحي بأن استيلاء الصليبيين على عكا وقيسارية ، لم يزد عن كونه مجرّد انتقال بالمدينتين من حكم إلى آخر ، في زمن كثُر فيه انتقال المدن من يد إلى يد ، ومن دويلة إلى دويلة ...

بيد أن من الصعب تقبّل افتراض كهذا ، لا سيّما إذا تذكّرنا أن الاستيلاء على قيسارية وعكا تمّ بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . مع ما يوحيه هذا الاستيلاء على المدينة المقدّسة من طابع ديني للغزوة الصليبية .

---

١ – انظر : Carl Brockelmann : History of the Islamic Peoples , London , 1952 , p. 22 .

وفضلاً عن ذلك ، فقد رافق استيلاء الصليبيين على المدينة المقدسة والمدينتين المذكورتين إراقة دماء غزيرة ، على نحو لم يعهده الناس في المنطقة لدى انتقال مدنهم من حاكم مسلم ، إلى حاكم مسلم آخر . هذا بالاضافة إلى ما كان يعانيه البلد بعد احتلال الصليبيين له من تغيير طابعه من حيث السكان والمعيشة وطريقة الحياة ، وهو تغيير نستطيع أن نفهمه نحن أبناء هذا العصر ، إذا ما تذكرنا ما أحدثه الاحتلال الصهيوني الحديث لمدن فلسطين ، بما فيها عكا وقيسارية ، من تغيير في طابعها وصبغتها ...

وربما خطر في الذهن ، أن فكرة الولاء للوطن ، بمعنى الانتماء إلى بقعة محدّدة من الأرض ، لم تكن واضحة في أذهان الناس في ذلك العهد ، نظراً لوجود فكرة الانتماء إلى بلاد الإسلام كلها ، انتماءً يقوم على العقيدة في الدرجة الأولى ، وينبني عليه اعتبار الأراضي الإسلامية أينما كانت ، موطناً للإنسان المسلم من حيثما جاء ... ولكن ، ربما كان هذا الأمر يصح ، لو أن الذين انتزعوا المدينتين كانوا من أمراء المسلمين ... وإذن ، فالأرض لا تكون قد خرجت عن ديار الإسلام . بيد أن انتزاع الصليبيين للمدينتين ، كان يشكّل في المفهوم الإسلامي غزواً لديار الإسلام ، يوجب الجهاد حتى على النساء ، ويبيح للمتزوجات منهن أن يخرجن للجهاد دون استئذان أزواجهن ...

وفضلاً عن ذلك ، فإن العدو الذي احتل مسقط رأس الشاعر وأرض منشئه ، لم يكن يناصب العداء أهل بقعة معينة من أرض الدولة الإسلامية الكبرى ، بل كان يريد ابتلاع كل ما يمكن ابتلاعه من أرض المسلمين ، معلناً أنه يفعل ذلك ، تحت راية الصليب ومن أجل كسر شوكة الإسلام ، مما يجعل عداءه لدولة الإسلام الكبرى وللعقيدة الإسلامية جمعاء ، أمراً لا يحتاج إلى دليل ، ومما ينبني عليه استعداء كل مواطن في الدولة الإسلامية الكبيرة ، وكل من يدين بعقيدة الإسلام ...

وربما دفعنا خلو شعر ابن القيسراني من التحنان إلى أرض المولد والمنشأ ، إلى تساؤل عن شخصية الشاعر ، ومدى ارتباطها بالأماكن والمواطن . فهل كان تحنان ابن القيسراني للأماكن رهناً بصبوات ومتع شخصية ، تذكّره بها ، وتثير تشوقه إليها ؟ قد يحملنا على هذا الاحتمال الجارح لخلق الشاعر . شعر ابن القيسراني نفسه ، الذي يحتوي تحناناً واشتياقاً إلى أماكن كانت له فيها متع فعليّة أو مزعومة ، كتلك المقطعات التي نظمها عام ٥٢٧ هـ في الحنين إلى منازل العراق ، بعد أن غادرها عائداً إلى مستقره في دمشق إذ ذاك . فهو يقول في واحدة منها :

أقمت بالأنبار ذا لوعـــة مقسومة بـين حبيبـين
أشتاق أهلي بدمشق وفي بغداد حظّ القلب والعـين

ويقول في ثانية :

ولما ثنى طرفي اشتياقي إليكم ولم يركم كاد الفؤاد يطير
وكيف برؤياكم وبيني وبينكم مهامِهُ تثني الطرف وهو حسير
وأعجب ما ألقاه في الحب انني أسير وقلبي بالعراق أسير

وفي ثالثة :

أحب الشآم وأهوى العراق فخلفي هوى وأمامي هوا
فيا معشر الناس أشكو الغرام إليكم فهل عندكم من دوا[1] ؟

بل ان الحنين إلى مواطن الصبوات ، ليظهر في صورة أوضح في « ثغريّاته » التي نظمها بعد زيارته عام ٥٤٠ هـ لاماكن كانت تحت حكم الصليبيين ، إذ يحمله ولعه بالجميلات النصرانيات في تلك المدينة على أن يتمنّى الاقامة هناك ، ولو بحكم الأسر ، حتى لا يفارق موطن الجمال السافر !:

---

١ – انظر هذه المقطعات في مخطوطة الديوان ص ٥٦–٥٨ .

واحربا في الثغور من بلد يضحك حسناً كأنه ثغر
بها قصور كأنها بيع ناطقة من خلالها الصور
هالات طاقاتهن آهلة يبسم عن كل هالة قمر
سوافر كلما شعرن بنا برقعهنّ الحياء والخفر
من كل وجه كأنّ صورته بدر ولكنّ ليله شعر
سِرْتُ وخلّفتُ في ديارهمُ قلباً تمنّيت أنه بصر
ولم أزل أغبط المقيم بهمْ للقرب حتى غبطت من أُسِروا!

فهل نستخلص من ذلك أن الشاعر كان يحنّ إلى الأمكنة ، على أساس من دواعي الهوى وروابط اللذة ، وإذْ لم يكن له مثل هذه الدواعي والروابط في بلدي المولد والمنشأ ، لم يكن له فيها شعر ؟ ذلك أمر يصعب الجزم فيه بقول ، لا سيّما أن قول الايجاب فيه يحمل طعناً في شخصية الشاعر ، من حيث التزامه بهموم أمته ، في فترة من أخطر الفترات التي مرّت بها في تاريخها ، مع أن التزام ابن القيسراني بقضايا الوطن الإسلامي الكبير والأمة الإسلامية ، يتضح بصورة قاطعة في ذلك العدد الكبير من قصائده التي نظمها في أبطال الحروب الصليبية من المسلمين ، والوقائع التي خاضوها دفاعاً عن ديار الإسلام ، ولا سيّما عماد الدين زنكي وولده نور الدين محمود ، وهي قصائد تكشف عن إحساس قوي بالخطر الصليبي ، واندماج صادق في قضية الأمة التي كان الشاعر ينتمي إليها ، كما سيتبين في الصفحات اللاحقة .

وإذا كنا لم نخرج بتعليل حاسم لغياب شعر الحنين إلى مرابع الشاعر الأولى في شعر ابن القيسراني ، فلعلّ في واحد من الافتراضات السابقة ، أو في عدد منها شيئاً من صواب ...

---

١ – مخطوطة الديوان ص ٦٣، ٦٤ . انظر كذلك الصفحات من ٦١–٧٩ المحتوية على غزل للشاعر بالفرنجيات في الأرض المحتلة .

ثانياً ، في ظل حكام دمشق :

أول قصيدة نعرفها لابن القيسراني متصلة بأحداث الحروب الصليبية ، نظمها عام ٥٢٣ هـ يمدح بها تاج الملوك بوري بن طغتكين ، بمناسبة انتصاره على الصليبيين . ويروي ابن القلانسي قصة هذه الواقعة فيقول ما مؤداه : وفي سنة ٥٢٣ هـ ، طمع الفرنج في دمشق ، وجمعوا لها جموعاً عظيمة ، فتأهب تاج الملوك ، وتقابل الفريقان أياماً دون قتال ، ثم أحبط تاج الملوك محاولات الافرنج لجمع مؤونة حوران ، وضايقهم بالهجوم المتكرر ، فانخذلوا وولّى متقدمهم « وليام دبور » William de Boure في جمعٍ من الخيالة منهزمين ، وغنم تاج الملوك غنائم كثيرة ، فابتهج الناس بهذا اليوم السعيد والنصر الحميد ، وقويت النفوس وانشرحت به الصدور[١] . أما الحافظ الذهبي ، فيربط مهاجمة الصليبيين لدمشق سنة ٥٢٣ هـ بمؤامرة داخلية في المدينة ، اشترك فيها الباطنية ، ووزير خائن لتاج الملوك ، ثم يقول : « وجاءت الفرنج ، فنازلت دمشق وسار عبد الوهاب ابن الحنبلي في طائفة يستصرخ أهل بغداد على الفرنج ، فوعدوا بالانجاد ، ثم تناخى عسكر دمشق والعرب والتركمان ، فبيّتوا الفرنج ، فقتلوا وأسروا ولله الحمد »[٢] .

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ط بيروت ، مطبعة الآباء اليسوعيين سنة ١٩٠٨ ص٢٢٥–٢٢٦ .

٢ – العبر في خبر من غبر ج ٤ ص ٥٣ .

والقصيدة التي أوردها أبو شامة عن الحادث في «الروضتين» وعدّة ابياتها واحد وعشرون ، تسبقها العبارة التالية : «وقرأت في ديوان محمد ابن نصر القيسراني قصيدة في مدح تاج الملوك بوري ، جدّ مجير الدين ، أنشده إياها عند كسرة الفرنج على دمشق في أواخر سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين[1] .

غير أن هناك شيئاً يثير التساؤل حول هذه القصيدة ، وهو مطلعها كما أورده أبو شامة :

الحق مبتهج والسيف مبتسم ومال أعدا مجير الدين تعتسم

فذكر مجير الدين في مطلع القصيدة ، لا معنى له ، إذا كانت القصيدة قد قيلت في «تاج الملوك بوري» الذي تسلّم الحكم في دمشق بعد وفاة والده «أتابك طغتكين» عام ٥٢٢ هـ ، في حين أن «مجير الدين» حفيد «بوري» تولى الحكم في دمشق وهو صبي مراهق عام ٥٣٤ هـ ، وبقي فيه إلى أن انتزعت دمشق منه عام ٥٤٩ هـ[2] . ونرجع إلى القصيدة ، لعلنا نجد فيها قبس هداية ، يحدّد هويّة الواقعة ، وبالتالي تاريخها ، فلا نجد شيئاً محدّداً ، فهي إشادة بالممدوح الذي يخاطبه الشاعر بتاء الخطاب كما يلي :

قدت الجيـاد وحصّنت البلاد وأمّنت العباد فأنت الحل والحرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها معاقد الحزم في أوساطهـاالحزم
أجريت بحراً مـن الماذي معتكراً أمواجه بأواسي اليأس تلتطم
وسست جندك والرحمن يكلؤه سياسةً مـا يعفّي إثْرهـا ندم
وقفت بالجيش والأعلام خافقة بالنصر كلّ قناةٍ فوقها علم

وأما إشارته إلى الصليبيين في القصيدة ، فتقدّم لنا صورة جيش غازٍ

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤١–١٤٢ .

٢ – انظر الصفحات السابقة : ٢٣ ، ٢٦ ، ٢٧ .

لجب ، أحاط بالمدينة محاولاً اقتحامها وأخذها بقيادة ملكٍ طاغ ، ولكنّ هذا الجيش ينهزم أمام المسلمين :

حتى إذا ما أحاط المشركون بنا ... كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا لا من الأقبال في عدد ... يؤود حاسبه الأعياء والسأم
سروا لينتهبوا الاعمار فانتُهِبوا ... قتلاً ويغتنموا الأموال فاغتُنِموا
وأدبر الملك الطاغي يزعزعه ... حرّ الأسنّةِ وهو البارد الشّبم
وافوا دمشق فظنوا أنها جدة ... ففارقوها وفي أيديهم العدم
وأيقنوا معْ ضياءِ الصبح أنهمُ ... إنْ لم يزولوا سِراعاً زالت الخيم
فغادروا أكثر القربان وانجفلوا ... وخلّفوا أكبر الصلبان وانهزموا
وحاولوا المسجد الأدنى فما عبرتْ ... عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم[1]

ولسنا نعرف غزواً صليبياً لدمشق على هذه الشاكلة خارج نطاق أحداث عام ٥٢٣ هـ المنوّه عنها ، إلا ما حصل عام ٥٤٣ هـ مما سبقت الإشارة إليه . وصحيح أن حاكم دمشق عام ٥٤٣ هـ كان مجير الدين ، إلا أن المتمكن من السلطة في المدينة إذ ذاك كان أتابكَهُ « معين الدين أنر » . ونستبعد أن يكون أيّ من الرجلين هو المقصود بالمدح في هذه القصيدة ، لأن ابن القيسراني كان في تلك السنة في حمى نور الدين ، منقطعاً إليه وإلى رجال دولته دون حكام دمشق ، الذين لم تكن علاقاتهم مع نور الدين وديّة دائماً .

ولعلّ من الأمور المحتملة التي قد تزيل الإشكال المترتب على ذكر مجير الدين في أول القصيدة ، أن يكون بيت المطلع قد افتتحت به قصيدة قالها الشاعر في مجير الدين عندما وفد عليه عام ٥٤٧ أو عام ٥٤٨ هـ ، ثم اختلط الأمر على من كتبوا شعر ابن القيسراني ، فضموا هذا البيت إلى القصيدة الآنفة الذكر لتشابه في الوزن والقافية .

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤١ – ١٤٢ .

ولعل أبا شامة لم يكن واضحاً دقيقاً في التعبير عما يريد حينما قدّم للقصيدة ، فأراد بقوله : « أول القصيدة » بعد قوله : « وهي واقعة تشبه الواقعة في زمن مجير الدين » مطلع القصيدة التي نظمت في مجير الدين في تاريخ لاحق (٥٤٧ أو ٥٤٨ هـ مثلا) ، ثم استأنف الحديث عن قصيدة ابن القيسراني في تاج الملوك بوري عند قوله : « يقول فيها » ... وأورد بعد ذلك أبيات القصيدة التي نظمت عام ٥٢٣ هـ[1] .

---

١ – انظر كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤١ .

obeikandl.com

ثالثاً ، في كنف عماد الدين زنكي :

والقصيدة الثانية ، من حيث التسلسل التاريخي ، التي وقفنا عليها لابن القيسراني مما يتصل بالوجود الصليبي في بلاد الشام ، موجودة في كتاب « الروضتين » كذلك[1] ، في أربعة عشر بيتاً ومطلعها :

حذار منا وأنى ينفع الحذر وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر

ويورد أبو شامة ما يلي حول الظروف التي نظمت فيها القصيدة : « ثم سار أتابك الشهيد في هذه السنة ، وهي سنة أربع وثلاثين إلى بلاد الفرنج ، فأغار عليها . واجتمع ملوك الفرنج وساروا إليه ، فلقيهم بالقرب من حصن بارين[2] ، وهو للفرنج ، فصبر الفريقان صبراً لم يسمع بمثله ، إلا ما يُحكى عن ليلة « الهرير » ونصر الله المسلمين ، وهرب ملوك الفرنج وفرسانهم ، فدخلوا حصن « بارين » ، وفيهم ملك القدس ، لأنه كان أقرب حصونهم ، وأسلموا عدّتهم وعتادهم ، وكثر فيهم الجراح . ثم سار الشهيد إلى حصن « بارين » فحصره حصراً شديداً ، فراسلوه في طلب الأمان ليسلموا ويسلّموا الحصن ، فأبى إلا أخذهم قهراً . فبلغه أن من بالساحل

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٨٨–٨٩ .

٢ – بين حلب وحماة من جهة الغرب . معجم البلدان ج ٢ ص ٣٤–٣٥ .

من الفرنج قد ساروا إلى الروم والفرنج يستنجدونهم ، وينهون إليهم ما فيه ملوكهم من الحصر . فجمعوا وحشدوا وأقبلوا إلى الساحل ، ومن بالحصن لا يعلمون بشيء من ذلك ، لقوّة الحصر عليهم . فأعادوا مراسلته في طلب الأمان فأجابهم وتسلّم الحصن ، وساروا ، فلقيتهم أمداد النصرانيّة ، فسألوهم عن حالهم ، فأخبروهم بتسليم الحصن ، فلاموهم وقالوا : عجزتم عن حفظه يوماً أو يومين ، فحلفوا لهم « انا لم نعلم بوصولكم ولم يبلغنا عنكم خبر منذ حصرنا إلى الآن . فلما عميت الأخبار عنا ، ظننا أنكم قد أهملتم أمرنا ، فحقنّا دماءنا بتسليم الحصن »[1] .

ويقول ابن الأثير في هذه الواقعة[2] : « وكان حصن بارين من أضرّ بلاد الفرنج على المسلمين . فإن أهله قد أخربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها ، وتقطّعت السبل ، فأزال الله تعالى بالشهيد رحمه الله هذا الضرر العظيم . وفي مدة مقامه على حصن بارين سيّر جنده إلى المعرّة وكفرطاب[3] فاستولى عليها وملكها وهي بلاد كبيرة ، وقرايا عظيمة » .

والقارىء لقصيدة ابن القيسراني في هذه المعركة يلحظ شعوره بالانتماء إلى الجماعة ، والتحدّث باسمها بلغة ملؤها ثقة بالنفس ، تدفع إلى الازراء بالعدوّ :

حذار منّا وأنى ينفع الحذر ... وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك ... من خيله النصر لا بل جنده القدر
سلّوا سيوفاً كأغماد السيوف بها ... صالوا فما غمدوا نصلاً ولا شهروا

والحديث عن دور البطل في هذه القصيدة ، كما هو في القصائد العربية

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٨٧–٨٨ .
٢ – كتاب الأتابكة ص ١٠٩ – ١١٠ .
٣ – بين المعرة وحلب ، في برية معطشة تجمع مياه أمطارها في صهاريج . معجم البلدان ج ٧ ص ٢٦٥ – ٢٦٦ .

القديمة كلها تقريباً ، يحتلّ مكان الصدارة . وهو هنا ، بحكم طبيعة الحرب القائمة ، بطل اسلامي ، يقاتل في سبيل الله ضدّ أعداء الدين :

حتى إذا ما عماد الدين أرهقهم ... في مأزق من سناه يبرق البصر
ولّوا تضيق بهم ذرعاً مسالكهم ... والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وفي المسافة من دون النجاة لهم ... طول ،وإنْ كان في أقطارها قصر
وأصبح الدين لا عيناً ولا أثراً ... يخاف والكفر لا عين ولا أثر

والهيبة التي كانت للافرنج في قلوب المسلمين ، ولّت بظهور عماد الدين الذي يمثّل أول حركة استرداد إسلامية في المنطقة :

فلا تخفْ بعدها الأفرنج قاطبة ... فالقوم إنْ نفروا ألوى بهم نفر
إنْ قاتلوا قُتِلوا أو حاربوا حُرِبوا ... أو طاردوا طُرِدوا أو حاصروا حُصِروا

وهي حالة تختلف عن الحالة التي كانت قائمة قبل عماد الدين :

وطالما استفحل الخطب البهيم بهم ... حتى أتى ملك آراؤه غـــرر
والسيف مفترعٌ أبكـار أنفسهم ... ومن هنالك قيل الصارم الذكـر

وما دام النصر يحفز إلى انتصارات أخرى ، فليس بغريب أن يتطلع الشاعر بعد انتصار عماد الدين في « بارين » إلى استرداد الأراضي الشامية المحتلة كلها :

ولا انثنى النصر عن أنصار دولته ... بحيث كان وإن كانوا به نصروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكـة ... كأنما حلّ في أكنافها عـمـر

وهذه اللفتة إلى شخصية إسلامية عظيمة (عمر بن الخطاب) . لها ارتباط تاريخي بالفتوح الإسلامية الأولى في بلاد الشام ، من الأمور التي تلقانا كثيراً في شعر ابن القيسراني ومعاصريه من الشعراء ، وكأنما يريدون باقامة الروابط ما بين الحاضر والماضي الإسلامي المجيد الغنيّ بشخصيات فذّة ، استثارة ايحاءات فكرية وعاطفية في نفوس المسلمين جميعاً . والمقاتلين

منهم بصورة خاصة ، بسبب ما تتركه هذه الايحاءات من أثر فاعل في النفوس .

. . .

والقصيدة الثالثة لابن القيسراني ، من حيث التسلسل التاريخي ، من شعره المتصل بالصليبيين ، قيلت في أهم نصر حققه عماد الدين زنكي في حياته — ذلك هو احتلال الرّها ، قاعدة أول إمارة أقامها الصليبيون في المنطقة . وتقع القصيدة كما أوردها صاحب الروضتين ، في ثمانية وعشرين بيتاً[1] ، في حين أورد العماد الأصفهاني في الخريدة أبياتاً منها[2] ، وهي تبدأ بقول الشاعر :

هو السيف لا يغنيك إلاّ جلاده وهل طوّق الأمـلاك إلاّ نجاده

ويقول أبو شامة في روايته لحديث فتح الرّها[3] : في فتح الشهيد الرّها في جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ ، وكانت لجوسلين ، وهو عاتي الفرنج وشيطانهم ، والمقدّم على رجالهم وفرسانهم . وكانت مدّة حصاره لها ثمانية وعشرين يوماً ، وأعادها إلى حكم الإسلام . وهذه الرّها من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً . وهي احدى الكراسي عندهم . فأشرفها البيت المقدّس ، ثم أنطاكية ، ثم رومية ، ثم قسطنطينية ، والرّها . وكان على المسلمين من الفرنج الذين بالرّها شرّ عظيم . وملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات ، على طريق سنجار ، عدّة حصون ، كسروج ، والبيرة ، وجملين ، والموزّر . وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وماردين ، ورأس عين والرّقة . وأما حرّان ، فكانت معهم في الخزي كلّ يوم ، قد صبحوها

---

١ — انظر الروضتين ج١ ق١ ص ٩٦ .
٢ — الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص ١٥٤ — ١٥٥ .
٣ — كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٩٤ — ٩٦ .

بالغارة . فلما رأى الشهيد الحال هكذا ، أنف منهم ، وعلم أنه لا ينال غرضاً ما دام جوسلين بها ، فأخذ في إعمال الحيل والخداع ، لعلّ جوسلين يخرج منها إلى بعض البقاع ، فتشاغل عنها يقصد ما جاورها من ديار بكر التي بيد الإسلام ... فلما رأي جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر ، ظنّ أنه لا فراغ له إليه ، وانه لا يمكن الاقدام عليه . ففارق الرّها إلى بلاده الشاميّة ليلاحظ أعماله ، ويتعهد ذخائره وأمواله . فأقبل الشهيد مسرعاً بعساكره إلى الرّها ... وألّح الشهيد في حصارها ، فملكها عنوة ... ثم رتّب البلد وأصلح من شأنه وسار عنه ، فاستولى على ما كان بيد الفرنج من المدن والحصون والقرايا ، كسروج وغيرها ، وأخلى ديار الجزيرة من معرّة الفرنج ، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين ، وكان فتحاً عظيماً طار في الآفاق ذكره ، وطاب بها نشره ، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء».

ثم يذكر أبو شامة بعد ايراد قصة الفتح قصيدة ابن القيسراني ويصدّر لها بقوله : «قلت» وهنأه القيسراني عند فتح الرّها بقصيدة أولها : «هو السيف ... ... » .

وتحمل القصيدة منذ البداية احساس النشوة بالظفر الكبير ، الذي حققه البطل المجاهد في سبيل الله والإسلام :

هو السيف لا يغنيك إلاّ جلاده ... وهل طوّق الاملاك إلاّ نجاده؟
وعن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبا ... سناها وإن فاتالعيون اتقاده
سمت قبة الإسلام فخراً بطوله ... ولم يكُ يسمو الدين لولا عماده
ليهْن بني الإيمان أمن ترفعت ... رواسيه عزاً واطمأنّ مهاده
وفتح حديث في السماع حديثه ... شهيّ إلى يوم المعاد معاده

وإكبار الشاعر للفتح يدفعه لأن ينتقل من تقارع السيوف إلى تقارع العقائد :

لقد كان في فتح الرّهاء دلالـــة على غير ما عند العلوج اعتقاده
يرجّون ميلاد ابن مـريم نصرة ولم يُغنِ عند القوم عنه ولاده

وينظر ابن القيسراني إلى فتح عمورية ، وإلى قصيدة أبي تمام المشهورة في ذلك الفتح حين يقول :

مدينة إفكٍ منذ خمسين حجّة يفلّ حديد الهند عنها حـداده
تفوت مدى الأبصار حتّى لو أنها ترقّت إليه خان طرفاً سـواده
وجامحـة عزّ الملوك قيادها إلى أن ثناها من يعزّ قياده
فأضرمها نارين : حرباً وخدعـة فما راع إلاّ سورهـا وانهداده
فصدّت صدود البكر عند افتضاضها وهيهات كان السيف حتماً سفاده

ومن مركز القوّة ، يتحدّى الأعداء ، ويعبّر عن شماتته بهم ، ويهدّدهم وهو يرتفع بممدوحه إلى آفاق سامقة :

إلى أين يا أسرى الضلالة بعدها لقد ذلّ غاويكم وعزّ رشاده
رويدكُمُ لا مانع مـن مظفّر يعاند أسباب القضاء عنـاده
مصيب سهام الرأي لـو أن عزمه رمى سدّ ذي القرنين أصمى سداده
وقل للملوك الكفر تسلم بعدهـا ممالكهـا ان البـلاد بـلاده

ويغمر الشاعر احساس بالأمل الزاهر في المستقبل ، وهو يرى في سيّده صورة المجاهد المسلم الذي تنصره ملائكة السماء ، حتّى ليصوّر له الأمل الجامح أنّ عاصمة امبراطورية الروم نفسها لم تعد بعيدة عن متناول البطل :

كذا عن طريق الصبح فلينتهالدّجى فيا طالما غال الظلام امتـداده
ومن كان أملاك السموات جنده فأية أرضٍ لم تَرُضْها جيـاده
ولله عزم مـاء سيحان ورده وروضة قسطنطينيَهْ مُسْتَرَاده

* * *

ويبدو أن فتح الرّها كان في نظر الشاعر ، يستحق أكثر من قصيدة

واحدة . ولذا ، فاننا نجد أبياتاً من قصيدة أخرى ، يهنيء بها الشاعر القاضي كمال الدين أبا الفضل الشهرزوري بفتح المدينة . وهذا القاضي كان من الشخصيّات التي اعتمد عليها عماد الدين كثيراً ، فقد أرسله عام ثلاثين وخمسمائة إلى بغداد رسولاً عنه ، بعد خلع الخليفة الراشد وبيعة المقتفي ، فنجح في وفادته ، وكسب الكثير لعماد الدين . ثمّ ولاّه نور الدين فيما بعد قضاء دمشق والشام ، وفوّض إليه أمر المدارس والمساجد والأوقاف ودار الضرب . وقيل انه اتخذه وزيراً[1] .

والأبيات المنوّه عنها ، وعدّتها أحد عشر بيتاً ، أوردها أبو شامة في « الروضتين »[2] ، وأول بيت في القصيدة ، لم يورد منه أبو شامة إلاّ صدره فقط : « هي جنة المأوى فهل من خاطب »[3] .

ويلحظ الناظر في الأبيات محاولة الشاعر ربط هذا الفتح بمعارك سابقة للإسلام ، لها إيحاءات معيّنة للإنسان المسلم ، ومنها « بدر » و « عمورية » :

فتح الفتوح مبشّراً بتمامه ... كالفجر في صدر النهار الآيب
لله أيّة وقفة بدريّة ... نصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظفر كمال الدين كنت لقاحه ... كم ناهضٍ بالحرب غير محارب
وأمدّكم جيش الملائك نصرة ... بكتائب محفوفة بكتائب
جنبوا الدّبور وقُدْتُمُ ريح الصبا ... جندُ النبوّة هل لها من غالب ؟!

وتختلط شماتة الشاعر في القصيدة ، بتحدّي العدو وتهديده ومحاولة تلمّس الأعذار للمسلمين الذين قعدوا عن الجهاد قبل عماد الدين :

---

١ – انظر فيما يتعلق بالقاضي الشهرزوري : الخريدة ج٢ ص ٣٢٣ . ذيل تاريخ دمشق ص ٣٥٩ . تاريخ الأتابكة ص ٩٧ – ٩٨ . مرآة الزمان ج٨ ص ٣٤٠ – ٣٤١ . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٨٩ – ٩١ ، ٢٣٦ ، ٣١٠ . مفرج الكروب ج١ ص ٦٨، ٧٩–٨١ .

٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٩٨ – ٩٩ .

٣ – المصدر نفسه ص ٩٨ .

لا أبن يا أسرى المهالك بعدها ضاق الفضاء على نجاة الهارب
شدّاً إلى أرض الفرنجة بعدها إن الدروب على الطريق اللاحب
أفغرّكُمْ والثأر رهنُ دمائكم ما كان من إطراق لحظ الطالب؟!
وإذا رأيت الليث يجمع نفسه دون الفريسة فهو عين الواثب !

obeikandl.com

رابعاً ، في الأرض المحتلّة :

بعد سنة واحدة فقط من فتح الرّها ، أي في عام أربعين وخمسمائة ، نسمع من ابن القيسراني ، وهو إذ ذاك ابن اثنتين وستين ، نغماً يفجأنا ، لا يخلو رغم غرابته وطرافته من دلالات ذات فائدة ، لدارس العلاقات التي كانت قائمة ما بين المسلمين والصليبيين في المنطقة ، وكذلك للمهتم بالقضايا الاجتماعية والحضارية . هذا النغم الجديد ، ينطلق من مجموعة من المقطّعات الشعرية ، التي نظمها الشاعر عندما دخل أنطاكية المحتلة ، ومرّ بالعواصم ، فاستحسن مواضع معيّنة بما فيها من مناظر ، ومن فيها من جميلات المنطقة أو جميلات أوروبا الوافدات مع الغزاة. وقد أطلق على هذه المقطّعات في مخطوطة الديوان اسم « الثغريّات »[1] ، وقد سبقت الاشارة إلى ما أورده العماد في الخريدة عن قصة زيارة الشاعر لانطاكية ، وما نظمه من مقطعات خلال تلك الزيارة[2] .

وأولى هذه المقطّعات تتحدّث عن راهبات جميلات يتعبدّن في الكنائس :

كم بالكنائس مـن مبتلّـة مثل المهاة يزينها الخـفـر
من كل ساجدة لصورتهـا لو ألصقت سجدت لها الصور

---

١ – مخطوطة الديوان ص ٦١ .
٢ – انظر الخريدة ج١ ص ٩٩ .

قدّيسة في حبل عاتقها طول وفي زنّارها قصر
غرس الحياء بصحن وجنتها ورداً سقى أغصانه النظر
وتكلّمت فيها الجفون فلو حاورتها لأجابك الحور
وجلت مدارعها غدائرها فأراك ضعفي ليلة قمر[1]

والناظر في المقطّعة ، يجد عبث شاعر يذكّره بعبث أبي نواس وأضرابه من شعراء العباسيين المجّان ، الذين كانوا يتّرددون على أديرة النصارى للاستمتاع بالوجه الجميل والخمر المعتّقة . ولكن الجديد في الأمر ها هنا ، والغريب فيه في آن واحد ، أن ابن القيسراني يرود كنائس وأديرة ، في أرض اغتصبت من المسلمين ، وأجلي أهلها عنها قهراً ، وأقام أعداؤهم الغزاة فيها اغتصاباً ، في حين أنّ أبا نواس وأصحابه من الشعراء المجّان ، كانوا يعبثون في أرض تدين للدولة الإسلامية بالطاعة ، وسكانها ، بمن فيهم من الرهبان والراهبات ، كانوا من رعايا الخليفة العباسي ، ومن هنا كان انعدام المرارة في شعر السابقين من شعراء بني العباس أمراً طبيعياً ، في حين أن انعدامها في « ثغريات » ابن القيسراني أمر يثير العجب ، وبخاصّة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ، الموقف المعادي الصلب الذي اتخذه الشاعر في قصائده التي نظمها في معارك عماد الدين ونور الدين ضدّ الصليبيين قبل عام ٥٤٠ — عام زيارته للثغور — وبعد هذا التاريخ .

هل هو عبث شاعر يتلمس الجمال أينما كان دونما اعتبار لارتباطات الجمال العرقيّة والدينية ، ودونما اهتمام بالمعسكر الذي ينتسب إليه الجمال ؟ ربّما ... ولكنّ الأمر يظلّ غريباً ، لا سيما إذا تذكّرنا أن الشاعر لم يكن في سنّ الصبوات العارمة الجامحة . إذ كان قد تجاوز الستين كما ذكرنا ، ولعل روحه كانت تستعصي على الشيخوخة وتتشبّث بالشباب ، حتى بعد أن تنقضي سنوات الشباب ...

---

١ — مخطوطة الديوان ص ٦٢ .

وتصوّر أبيات المقطّعة المشاهد النصرانية في بيئة الكنيسة بألفاظ مألوفة لدى النصارى ، ومع ذلك لم يتخلّص الشاعر ، وهو يصف الراهبة الجميلة ، من التصور العربي الشرقي للجمال ، كما هو واضح في البيت الأول من المقطّعة ، والأبيات الثلاثة الأخيرة منها ...

وإذا ما تابعنا رحلة الشاعر في الأرض المحتلّة ، نجد أدلة جديدة على عبثه ، كما يتضح من المقطّعة التالية :

كم لي بأنطاكية من هوى ... لا أنثني عنه بتعفيف
إذ لا أجيل العين إلا على ... جيش من الأقمار مصفوف
من كل بيضاء مسيحية ... ما عندها البدر بموصوف
تجري ثناياها المآقي فما ... تلحظ طرفاً غير مطروف
فالعين خوف العين مصروفة ... عنها وما القلب بمصروف
هذا ، وكم وجه كشمس الضحى ... بالهيكل المكشوف مكشوف[1]

ولو صدّقنا الشاعر فيما ادّعاه في البيت الأول من هذه المقطّعة لوقر في أذهاننا أن هواه في أنطاكية لم يكن عفيفاً .. ولعلّه مجرّد ادّعاء بعثت عليه مغالبة الشيخوخة، ومكابرة الزمن ، ليس إلا ... ؛ ومن الواضح أنّ سفور المرأة الفرنجية ، قد لفت انتباه الشاعر ، لأنه أمر غير مألوف في البيئة الإسلامية حيث تحتجب الحرائر من المسلمات ، ولا يُتحن لامثال ابن القيسراني فرصة التفرس في وجوههن ...

ونطالع اندهاشاً مماثلاً للجمال السافر ، إلا أنه ممتزج بتحرّج المسلم التقي ، فيما كتبه الرحالة ابن جبير في وصف حفل زفاف صليبي في صور ، وذلك إذ يقول : « ... والمسلمون وسائر النصارى من النظّار قد عادوا في طريقهم

---

١ – مخطوطة الديوان ص ٦٢ .

سماطين يتطلّعون فيهم ولا ينكرون ذلك عليهم » . وعندما يفرغ من وصف المنظر والموكب ، يقول متحرّجاً : « فأدّانا الاتفاق إلى رؤية هذا المنظر الزخرفي المستعاذ بالله من الفتنة منه ! »[1] .

ولعلّ من الأمور التي تثيرها رحلة ابن القيسراني في منطقة أنطاكية ، أمر الاتصال ما بين الطرفين المتحاربين ، ودخول المسلمين الأرض المحتلة ، وما يقابله من دخول الصليبيين الأرض الإسلامية . والذي يبدو أن مثل هذا الاتصال ، خاصة في أيام الهدن ، كان أمراً مألوفاً . ويكفي أن يعود المرء إلى كتاب « الاعتبار » لأسامة بن منقذ ، ليرى أمثلة عديدة على اتصال كان قائماً ما بين المسلمين والصليبيين ، في ظروف مختلفة يصوّرها لنا أسامة تصويراً أميناً[2] .

وعندما زار الرحالة الأندلسي ابن جبير المشرق الإسلامي خلال حكم صلاح الدين ، حدثنا حديث المتعجب المستغرب عن هذا الاتصال . فهو يذكر مثلاً أن سبايا الفرنج كانت تدخل بلاد المسلمين في الوقت الذي كانت فيه قوافل المسلمين التجارية تدخل البلاد التي يسيطر عليها الفرنج . ويتحدث عن دخول أسرى صليبيين أخذوا من نابلس إلى دمشق في عهد صلاح الدين ، في حين كانت القافلة التي فيها ابن جبير نفسه تخرج إلى بلاد الفرنج[3] . وفي مكان آخر من « رحلته » يشير ابن جبير إلى أنه على الرغم من القتال بين الفرنج والمسلمين ، فإن سير القوافل من مصر إلى دمشق عبر البلاد التي يحتلها الفرنج كان قائماً ، وكذلك اختلاف المسلمين من دمشق إلى عكا ، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحدهم ولا يعترض . ثم يقول : « وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم وهم من الأمنة على غاية . وتجار النصارى أيضاً

---

١ – رحلة ابن جبير ط بيروت ١٩٥٥ ص ٢٧٨ .

٢ – انظر كتاب الاعتبار حرره فيليب حتّي مطبعة جامعة برنستون سنة ١٩٣٠ ، ص ٩٧، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٧، ١٣٨ .

٣ – رحلة ابن جبير ص ٢٧١ .

يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم ، والاتفاق بينهم ، والاعتدال في جميع الأحوال ، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية ، والدنيا لمن غلب ! »[1] ويعقّب ابن جبير على هذا الأمن الغريب بقوله : وشأن هذه البلاد في ذلك ، أعجب من أن يُستوفى الحديث عنه »[2] .

والذي يتضح لدارس « ثغريّات » ابن القيسراني ، أن الأماكن التي كان يهتم بها الشاعر إبان زيارته لأنطاكية وأعمالها ، هي دور العبادة المسيحية ، التي تجتذب المتعبدات ، مع الاهتمام بالجميلات منهن على وجه الخصوص ، أو القصور التي تطل من طاقاتها الحسان . لا غرو إذن أن يقول في أنطاكية :

واحربا في الثغور من بلد ... يضحك حسناً كأنه ثغر
به قصور كأنها بيع ... ناطقة من خلالها الصور
هالات طاقاتهن آهلة ... يبسم عن كل هالة قمر
سوافر كلما شعرن بنا ... برقعهن الحياء والخفر
من كل وجه كأن صورته ... بدر ولكن ليله شعر
سرت وخلّفت في ديارهم ... قلباً تمنيّت أنه بصر
ولم أزل أغبط المقيم بهم ... للقرب حتى غبطت من أسروا[3]

أو يقول في متعبّدةٍ من النصرانيات جميلة[4] :

أُمَعْظِمَةُ الصليب وددت أني ... ودين الله عندكم صليب
إذا أقبلت قبلني حبيب ... أسر به وعانقني حبيب
وهل بيني وبين العود فرق ... يرى إلا التفجّع والنحيب

---

١ – رحلة ابن جبير ص ٢٦٠ .
٢ – المصدر نفسه ص ٢٦١ .
٣ – مخطوطة الديوان ص ٦٣ – ٦٤ .
٤ – مخطوطة الديوان ص ٦٤ .

هبيني صورة يُحنى عليها أجيب إذا دعيت ولا تجيب
فلم يُسمعْ بأطرف من فتاة من الرهبان قونتها أديب
فلو قدّيسها ناجاه لفظي لأمسى والنسيب له نسيب

وقد نتساءل ، ونحن نستقرىء في هذه الأبيات ، عبث الشاعر الشيخ ، الذي يحدّق النظر في نوافذ المباني لاستجلاء طلعات الحسان ، ويبدي ظرفاً وخفة روح يذكران بأبي نواس : ما سرّ تغيب الشعور بالمرارة والعداوة عند الشاعر ، وهو يجوس في أرض احتلت قسراً وانتزعها العدو من بني قومه ؟ هل هي طبيعة الشاعر الميالة إلى اللهو والصبوات، على الرغم من كرّ السنين عليه ، أم أنّ أنطاكية بالذات لم تكن تثير في نفسه من الأشجان ما قد تثيره مدن أخرى محتلّة كانت أقرب من أنطاكية عهداً بالمسلمين وأوثق صلة بدنيا الإسلام وتاريخه ؟

كان قد مرّ على سقوط أنطاكية في أيدي الصليبيين عندما زارها ابن القيسراني زهاء خمسين عاماً [1] . وعندما سقطت في أيديهم ، كان ابن القيسراني في الثالثة عشرة من عمره ، ويقيم في قيسارية على الساحل الفلسطيني . ولم يكن قد مر على استعادة المسلمين لأنطاكية من أيدي البيزنطيين أكثر من أربعة عشر عاماً . وذلك لأن المدينة استعادها سليمان بن قتلمش السلجوقي صاحب قونية عام ٤٧٧ هـ ، بعد أن لبثت في أيدي الروم البيزنطيين مئة وعشرين عاماً [2] . ترى هل كانت هذه الأسباب عاملاً على أن يكون انسلاخ أنطاكية عن ديار الإسلام لا يثير شجون شاعر كابن القيسراني ، وربما شجون مسلمين غيره كذلك ، وهم يرون أن المدينة لم تكن في حظيرة الإسلام خلال ما يناهز القرنين إلا مدة أربعة عشر عاماً فقط ، ومن ثمّ فإن شأنها غير شأن عكا ويافا والقدس ، التي لم تخرج عن حوزة الإسلام منذ أن

---

١ – سقطت المدينة في يد الصليبيين عام ٤٩١ هـ . الكامل ج١ ص ١٠٣ .
٢ – انظر العبر في خبر من غبر ج٣ ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

دخلت فيها زمن عمر بن الخطاب ، إلا في هذه الفترة على أيدي غزاة وافدين من أوروبا تحت راية الصليب ؟ هذا مجرّد ضرب من الاجتهاد في التفسير والتعليل قد يكون فيه شيء من صحّة ...

ولو واصلنا بعد ذلك تتبعنا لثغريات ابن القيسراني لوجدناها لا تختلف في مضمونها العام عما سبق . فهو يتتبع جميلات أنطاكية في معابدها متماجناً متصابياً متغنياً بالحياة الحضرية مزرياً بحياة البادية ، أو يرسم معالم الفتنة الفرنجية كما في قوله :

لقد فتنتني فرنجيـــة نسيم العبير بها يعبــق
ففي ثوبها غصن ناعــم وفي تاجها قمر مشرق
وإن تك في عينها زرقة فإن سنان القنا أزرق[1]

أو يرسم معالم أنطاكية العمرانية كتعرضه لوصف هيكل القسيان الشهير في المدينة ، حيث يحشد في أبياته التي قالها فيه طائفة من التعابير والألقاب التي تدل على معرفة الشاعر الدقيقة بالكنيسة المسيحية وأصناف العاملين فيها ، وما يدور فيها من صنوف العبادة ، مما يدل على ألفة ببعض جوانب الحياة عند الصليبيين :

يا غزال الثغور بالقسيان أنت من غال ذكره نسياني
حبذا يوم باكرتْنا الزنانير ترينا القضبان في الكثبـــان
وعلى موقف الأساقف ظبي يفرس الأسد من بني الفرسان
غصن نابت من المرمر المنضود في غير منبـت الأغصـان
ألذبح النفوس سمّوه بالمذبح أم للصــلاة والقــربــان؟
أخّرتْـهُ القسوس عن رتبة الصدر وحطته في صدور الأماني
ذاك وقت سخا عليّ به الدهــر فيا هل لذلك اليـوم ثـان

---

١ – مخطوطة الديوان ص ٦٦–٦٧ .

فأرى من أراني الشمس شماساً على الأرض تالي الألحـان[1]

ويقدم لنا الشاعر مَعْلَماً آخر من معالم أنطاكية الدينية حين يحدثنا في مقطوعة له عن كنيسة « السيدة » ، وهي قبّة شاهقة البنيان عجيبة الوضع لنصارى أنطاكية خاصة دون الافرنج[2] ، ويبدو أنها كانت عجيبة الوضع حقاً ، مما دفع الشاعر إلى أن يقول فيها :

اني رأيت بأنطاكيـة عجباً ... معرّس الفكر فيه غير مشترك
على اسم مريم فيهـا هيكل صلف ... سماؤه ذات أنوار من الحبك
تحوي إذا أذّن الناقوس معركة ... لعسكر الحسن فيها أيّ معترك
ناهيك من صورة تعنو لصورتها ... حسناً ومن مَلَكٍ يومي إلى ملك
لما رأيت بهـا الأقمار طالعة ... عجبت كيف أقاموا قبة الفلك[3]

ولا بدّ أن كنيسة « السيدة » هذه ، قد تركت تأثيراً قوياً في نفس الشاعر ، جعله يعود للحديث عنها في منظومة أخرى احتوت أربعة عشر بيتاً ، ذكر فيها العابدات الفاتنات[4] ...

على أن كنيسة « السيدة » ، لم تكن الكنيسة الوحيدة التي أمها الشاعر ليمتّع النظر بالجمال الحيّ الذي تشتمل عليه الكنائس عادة ، لا سيما في أوقات العبادة والمواسم الدينية .

وإذا كانت « السيدة » ، هي كنيسة نصارى أنطاكية المحليين ، فثمة كنيسة أخرى في أنطاكية للافرنج خاصة ، هي كنيسة « بربارة » ، وقد أعطاها

---

١ – مخطوطة الديوان ص ٦٧ .
٢ – انظر مخطوطة الديوان ص ٦٨ .
٣ – المصدر نفسه ص ٦٨ .
٤ – المصدر نفسه ص ٦٩ – ٧٠ .

الشاعر هي الأخرى حظها من الاهتمام ، حين نظم فيها خمسة عشر بيتاً ، أظهر فيها من جديد معرفة بالكنيسة المسيحية ، وما يرتبط بها من أسماء وألقاب وطقوس[1] .

وكأنّ ابن القيسراني قد جعل من وكده أن يستقصي كنائس أنطاكية ودور العبادة فيها زيارة ، يتفقد فيها صنوف الجمال المسيحي ، ما كان منه محلياً أو وافداً من وراء البحار ! من أجل ذلك ، كان له تعريج على كنيسة « اشمونيث » وهي « للفريرية والنصارى »[2] . وكأنّ ابن القيسراني في منظومته ذات الأحد عشر بيتاً التي نظمها في « اشمونيث » أراد أن يتقمّص شخصية أبي نواس في التزندق وادعاء الفتك والغزل بالمذكر ، وذلك بالتظرّف وايراد المصطلحات الكلامية والدينية :

لو كنت ثالثنا بأشمونيتا ... حتى ترى التوحيد والتثليثا
لرأيت منّا أعيناً طمّاحة ... تستحسن التذكير والتأنيثا
(ما بين) محتضن يجاذب ردفه ... فكأنه احتقب الرمال الميثا
ومهفهف لعب الصبا بقوامه ... حتى توهمت الشباب خنيثا
لما سألت علالة من ريقه ... ملأ الزجاجة ثم جاء حثيثا
قلت اسقني من فيك ان رضابه ... قد ردّ أطيب ماحملت خبيثا
قال اعتبر (...) المزاج نسيبة ... ما عند ثغري يفهم الثالوثا
وبدا يناظرني بها عن دينه ... فقطعت ليلاً بالجدال مكيثا
يختص عيسى بالصلاة واصطفي ... لوطاً وتُذْكرنا المدامة شيثا
يا ليلةً أفردتُ طرفي فجرها ... عنقاً يكون به المطيّ حديثا[3]

وإذ يذهب الشاعر إلى دير سمعان ، على بعد فرسخين من أنطاكية

---

١ – انظر القطعة في مخطوطة الديوان ص ٧٠ – ٧١ .
٢ – انظر مخطوطة الديوان ص ٧١ .
٣ – مخطوطة الديوان ص ٧٣ .

حيث ، يجتمع النصارى في عيد الصليب ، فإنه يحيي بذلك سنّة المجّان من شعراء العباسيين ، الذين كانوا يؤمون « الديارات » التماساً للهو . وفي الاثني عشر بيتاً التي نظمها الشاعر في الدير ، تتراءى لنا كالمعتاد المشاهد النصرانية والألفاظ الخاصة بها ، مثلما يتراءى لنا مجون الشاعر ، ممزوجاً بسمة علم أو تعالم[1] .

وليس فيما تبقّى في الرحلة وما قيل فيها من شعر معالم جديدة . فها هو ابن القيسراني يتغنى بجارية من مولدات أنطاكية اسمها « ماريّا » كانت « من أحسن الناس خَلقاً وخُلقاً تغني بالدفّ » ، فيكشف عن نفس ذوّاقة للهو ومعرفة بعادات النصارى :

فيا حسن ذاك الوجه إذ ريع روعة فعوّذه منها بتصليبه اليد[2]

أو يؤكد من جديد افتتانه بالحضريّة الناعمة وتفضيلها على البدوية الخشنة :

إذا مـا زرت « ماريّا » فما « سُعدى » وما « ريّا »؟
لهـا وجـهٌ مسيـحيٌ ترى الميْـت بـه حيّا ![3]

والجري وراء اللهو ، هو الذي تنمّ عنه مقطعاته الأخرى ، ومنها واحدة في خمارة بجسر الحديد على باب أنطاكية[4] ، وأخرى قالها عندما مرّ بالأثارب[5] وثالثة نظمها عندما اجتاز بعزاز من ضواحي حلب[6] ورابعة في مولّد من مولدي الافرنج أبصره « بياعوا » من بلاد الشمال[7] ، وحين

---

١ – انظر مخطوطة الديوان ص ٧٣–٧٤ .
٢ – مخطوطة الديوان ص ٧٥ .
٣ – المصدر نفسه ص ٧٦ .
٤ – المصدر نفسه ص ٧٧ .
٥ – المصدر نفسه ص ٧٨ .
٦ – المصدر نفسه ص ٧٨ – ٧٩ .
٧ – المصدر نفسه ص ٨٠ .

تحاول غانية مسيحية في بلدة « عمّ » أن تردّه إلى صوابه وتذكره بسنّه ، لم يجد ما يردّ به عليها إلا التحسر على أيام الشباب الفائتة :

واحيائي وقد مررت بعمّ من مسيحية دعتني بعمّي
أين عصر الشباب أيام أدعوها صبيّاً بجدّتي وبأمي !

هذه هي تجربة ابن القيسراني في أرض المسلمين المحتلة ، حين زارها وهو ابن اثنتين وستين . انها تجربة شيخ متشبث بأذيال الصبا ، يرتاد مواطن الجمال حيثما كان للجمال فرصة اجتماع في مكان . وهو إذ يحدثنا عن تجربته مع الجمال الأجنبي صادقاً أو مدّعياً ينقل إلينا بقصد أو بغير قصد ، صوراً من حياة الصليبيين والنصارى المحليين ، في كنائسهم وأديرتهم وقصورهم ومواسمهم وأعيادهم ومجالس لهوهم ، دون أن تبدو في حديثه عن مواطن الخصوم وحياتهم ، المرارة التي يتوقعها المرء من شاعر عانى هو نفسه من الغزو الصليبي وما انبنى عليه من إقصاء عن الأهل والوطن ...

خامساً : في دولة نور الدين محمود

بعد هذه الانعطافة الموقوتة في شعر ابن القيسراني المرتبط بالوجود الصليبي في المشرق الإسلامي نعود لنلتقي مع الشاعر في الخط الطبيعي الذي سار عليه عموماً — الخط الجهادي الذي سلكه في معظم ما نظم من شعر يتعلق بالصليبيين .

والقصيدة التي تطالعنا هنا في مسيرتنا مع الزمن ، أوردها العماد الأصفهاني في الخريدة[1] في ستة وأربعين بيتاً ، في حين أورد أبو شامة منها خمسة عشر بيتاً فقط[2]. وقد ظن فاروق جرّار أن القصيدة في مدح كمال الدين الشهرزوري[3] مع أن القصيدة في مدح « جمال الدين » وزير الموصل ، كما بيّن ذلك صراحة أبو شامة في « الروضتين » . وذلك حين يقول : وللقيسراني قصيدة مدح بها جمال الدين وزير الموصل ، ذكر فيها فتح « الرّها »[4] . وفضلاً عن ذلك فإن عبارة العماد الأصفهاني توحي بجلاء أن الممدوح هو جمال الدين المذكور ، وذلك لأنه يقدّم للقصيدة بقوله : « ومما أنشده بالرقّة ، قصيدة

---

١ — الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص ١٠٨ — ١١١ .

٢ — كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

٣ — انظر رسالة الماجستير (على الآلة الكاتبة) ص ٧٩

٤ — كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٢٦ .

مزجت الجزالة بالرقّة . يهنئه فيها بفتوح مدينة الرّها وذلك سنة... وخمسمائة[1]. والضمير في « يهنئه » يعود قطعاً إلى جمال الدين . لأن القصيدة السابقة مباشرة في « الخريدة » صدّرت بهذه العبارة: « ومن جمالياته الرائعة »[2] . وهناك وهم آخر وقع فيه كل من الدكتور شكري فيصل الذي حقّق « الخريدة » قسم شعراء الشام . وفاروق جرّار في رسالة الماجستير التي كتبها عن « ابن القيسراني — حياته وشعره » : ذلك هو تصوّر كل منهما أن التهنئة بفتح الرّها المضمنة في هذه القصيدة . كانت بالفتح الأول للمدينة على يد عماد الدين زنكي . فالدكتور شكري فيصل يكتب في حاشية « الخريدة » معقباً على التاريخ المبتور « سنة ... وخمسمائة » بقوله : « فراغ في « ب » . وكان فتح الرّها سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . فتحها عماد الدين زنكي »[3] . ويورد فاروق جرّار كذلك القصيدة في معرض حديثه عن فتح الرّها على يد عماد الدين سنة تسع وثلاثين وخمسمائة[4] .

والواقع أن هذه القصيدة قيلت في فتح الرّها الثاني على يد نور الدين محمود عام ٥٤١ هـ بدليل ما يلي :

أ — أورد أبو شامة في « الروضتين » هذه القصيدة في معرض الحديث عن فتح الرّها الثاني على يد نور الدين عام ٥٤١ هـ[5] .

ب — يورد الشاعر في أحد أبيات القصيدة لقب فاتح الرها « الملك العادل » وذلك حين يقول :

---

١ — الخريدة ج١ ص ١٠٨ .
٢ — المصدر نفسه ص ١٠٦ .
٣ — الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص ١٠٨ (حاشية) .
٤ — رسالة الماجستير ص ٧٧ وما بعدها .
٥ — انظر كتاب « الروضتين » ج١ ق١ ص ١٢٦ .

ليهنك ما افرج النصر عنه وما ناله الملـك العـادل[1]

والمعروف أن لقب « العادل » هو لقب نور الدين ، في حين أن «الشهيد» هو لقب عماد الدين .

ولعلّ الذي أدى إلى هذا الالتباس ، التصاق اسم الوزير جمال الدين ، وهو محمد بن علي ابن أبي منصور الأصفهاني أبو جعفر – باسم عماد الدين زنكي ، إذ أنه كان وزير الدولة الأتابكية بالموصل ، واتصل بعماد الدين ووزر له ، وكاد ينفرد بالحكم في دولته . إلا أنه عُمّر بعد وفاة عماد الدين عام ٥٤١ هـ ، وأصبح وزيراً لسيف الدين ولد عماد الدين بالموصل ، وعندما توفي سيف الدين عام ٥٤٤ هـ ، وخلفه قطب الدين ، استمر جمال الدين في الوزارة وبقي فيها إلى عام ٥٥٨ هـ ، وكانت وفاته عام ٥٥٩هـ [2] . ولا ريب أن صلة الوزير بآل زنكي – ونور الدين ، كما هو معروف ، نجل مؤسس البيت الزنكي – وكذلك قرب الرها جغرافياً من الموصل ، والارتباط السياسي بينهما – كل هذه تجعل اهتمام وزير الموصل باستعادة الرّها ، ومن ثمّ تهنئة الشاعر له بهذه الاستعادة ، أمراً طبيعياً .

ويلحظ الدارس لهذه القصيدة ، اندماج الشاعر التام في الجماعة الإسلامية حيث يقف معها في مواجهة الباطل الفرنجي :

أما آن أن يزهق الباطل وأن ينجز العـدة الماطل
إلى كم يغبّ ملوك الضلال سيف بأعناقهـا كافل

---

١ – الروضتين ص ١٢٧ .

٢ – انظر حول الوزير جمال الدين : ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٦ – ٣٠٧ ، الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص ١٨٠ – ١٨١ ، الكامل ج ١١ ص ٧٤ ، ٢٠٢–٢٠٥ ، مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٤٨ – ٢٥١ ، مفرج الكروب ج١ ص ١٧ ، ١٤٦ ، مرآة الجنان ج٣ ص ٣٤٢ – ٣٤٣ ، أخبار الحكماء ص ١٦٠ ، النجوم الزاهرة ج٥ ص ٣٦٥ ، شذرات الذهب ج٤ ص ١٨٥ ، زبدة الحلب ج٢ ص ٢٩٦ .

واستهانة الشاعر بالخصم وازراؤه به بعد هذا النصر يتجليان في قوله :

فلا تحفلنّ بصول الذئاب وقد زأر الأسد الباسل

ولعلّ المناسبة بما توحيه من تفوق وغلبة هي التي جعلت الأبيات التالية تنضح بالقوة وتعبّر عن الإيمان بها سبيلاً لتحقيق الغايات :

كذا ما انثنت قط صم الرماح أو يتثنّى القنا الذابل
هو السيف ، إلا تكن حاملاً لبزته بزّك الحامل
وهل يمنع الدين إلا فتى يصول انتقاماً فيستأصل

وغني عن البيان أن الروح الجهادية لا بد أن تكون بارزة في أبيات القصيدة ، كما في آخر الأبيات الثلاثة السابقة . وفي قول الشاعر :

وجاهد في الله حق الجهاد محتسب بالعُلى قافل

أما التطلع إلى استرداد القدس ومدن الساحل ، بعد كل نصر يحققه ممدوح ابن القيسراني ، فيكاد يكون أمراً مقرّراً في كل قصيدة تهنئة بنصر . نظمها الشاعر :

فإن يك فتح الرّها لجة فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديار أن المقيم بها راحل

وتهكم ابن القيسراني برئيس الفرنجة « القمص » يذكر القارىء بأبيات لأبي تمام والمتنبي ، تهكما فيها بقائد الروم . يقول ابن القيسراني في « القمص » المنهزم :

أرى «القمص»[1] يأمل فوت الرماح ولا بد أن يضرب الشائل
يقوّي معاقله جاهداً وهل عاقل بعدها عاقل
وكيف بضبط بوا قي الجهات لمن فات حسبته الحاصل

١ – هذه رواية صاحب الروضتين ج١ ق١ ص ١٢٧ .

ويراوح ابن القيسراني بذكاء ما بين موضوع القصيدة الأصلي ، وتقريظ الممدوح بما يتلاءم وشخصيته ومركزه في الدولة :

برأيك في الحرب أم لفظك استفاد اصابتـه النـائـل
وعن حد عزمك في المشكلات قضى فمضى الصارم الفاصل

والحديث عن قلم الوزير وضعه الشاعر في اطار الحرب وألفاظها :

ولمْ لا تحيط بآفـاقهـا وفي يدك الصامت القائل
إذا ما علا الخمس في حومة ففـارس بهمتها راجل[1]

* * *

وفي سنة ٥٤٣ هـ ، تجمّع الفرنج ليقصدوا أعمال حلب ويغيروا عليها . وعلم نور الدين بالأمر ، فقصدهم بعسكره . فالتقوا ببغرى ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، انجلى عن إنهزام الفرنج انهزاماً شنيعاً ، وقتل الكثير منهم ، وأسر جماعة من مقدّميهم ، ولم ينج منهم إلا الجمع القليل [2] . وفي هذه الواقعة قال ابن القيسراني قصيدة أولها :

يا ليت أن الصّد مصـدود أو لا فليت النوم مردود[3]

وبعد مقدمة غزليّة من أربعة أبيات ، يخرج فيها ابن القيسراني عن عادته في الاستغناء عن المقدّمات الغزليّة في قصائد القتال ، يرسم لنا الشاعر معالم صادقة لشخصية نور الدين ، بطل الموقعة . فيقدمه لنا ملكاً محبّباً لرعيته ، عادلاً ، مجاهداً شجاعاً ، مظفّراً ، مهيباً تقيّاً :

وكيف لا نشي على عيشنا المحمـود والسلطان محمود

---

١ – الخريدة ج١ ص ١١١ .
٢ – انظر الكامل ج ١١ ص ٨٩ . الأتابكة : ص ١٦٤ – ١٦٥ . زبدة الحلب ج٢ ص ٢٩٢ – ٢٩٣ . مفرج الكروب ج١ ص ١١٤ – ١١٥ .
٣ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٥ .

فليشكر الناس ظلال المنى إنّ رواق العز ممدود
ونيرات الملك وهّاجة وطالع الدولة مسعود
وصارم الإسلام لا ينثني إلا وشلو الكفر مقدود
مناقب لم تكن موجودة إلا ونور الدين موجود
مظفّر في درعه ضيغم عليه تاج الملك معقود
ترتشف الأفواه أسيافه إن رضاب العز مورود
وكم له من وقعة يومها عند ملوك الشرك مشهود
والقوم إما مرهق صرعة أو موثق بالقدّ مشدود
حتى إذا عادوا إلى مثلها قالت لهم هيبته عودوا

وحين يزري ابن القيسراني بالافرنج في آخر الأبيات العشرين التي أوردها أبو شامة ، يستعين بمعلوماته القرآنية وبالمشاكلة اللفظية حيث يقول :

وإنما الافرنج من بغيها عادٌ وقد عادَ لهم هود
قد حصحص الحق فما جاحد في قلبه بأسك مجحود
فكل مصر بك مستفتحٌ وكل ثغر بك مسدود

ولن يغيب عن ذهن القارىء وهو يطالع أبيات القيسراني هذه ، انها كانت تصويراً لشخصية البطل ، أكثر منها وصفاً محدداً لواقعة معينة .

* * *

وفي سنة ٥٤٤ هـ ، هزم نور الدين الفرنج هزيمة منكرة عند حصن « إنّب » وكان ممن قتل ، صاحب أنطاكية ، فأكثر الشعراء في مدح نور الدين . وقد ذكر هذه الواقعة كل من ابن الأثير وابن العديم وابن واصل وابن القلانسي[1] . وكان ابن القيسراني ممن مدحوا نور الدين في هذه المناسبة

---

١ – انظر الكامل ج-١١ ص ٩٥ ، الأتابكة ص ١٧٧ – ١٧٨ ، زبدة الحلب ج٢ ص ٢٩٨ – ٣٠٠ ، مفرج الكروب ج١ ص ١٢٠ – ١٢٢ ، ذيل تاريخ دمشق ص٣٠٤–٣٠٥ .

وقد أورد ابن الأثير سبعة عشر بيتاً من القصيدة[1] ، بينما أورد أبو شامة القصيدة كاملة ، بعد أن قدّم لها بهذه المقدمة الطويلة[2] :

« وفي صفر من السنة (٥٤٤ هـ) ، وردت البشائر من جهة نور الدين بما أولاه الله تعالى ، ولله الحمد ، من نصر على حشد الافرنج المخذول ، ولم يفلت منهم إلا من خبّر ببوارهم ، وتعجيل دمارهم .

وذلك أن نور الدين ، اجتمع له من سائر العساكر ستة آلاف فارس مقاتلة سوى الأتباع والسواد ، فنهض بهم إلى الافرنج في الموضع المعروف بإنّب ، وهم في نحو أربعمائة فارس وألف راجل ، فقتلوهم وغنموهم ، ووجد اللعين البرنس ، مقدّمهم ، صريعاً بين حماته وأبطاله[3] ... وكان هذا اللعين من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية وشدة البأس ، وقوة الحيل ، وعظم الخلقة ، مع اشتهار الهيبة وكثرة السطوة والتناهي في الشر ، وذلك يوم الاربعاء ، الحادي والعشرين من صفر . ثم نزل نور الدين في العسكر على باب أنطاكية ، وقد خلت من حماتها والذابين عنها ، ولم يبق فيها غير أهلها ، مع كثرة أعدادهم وحصانة بلدهم . وترددت المراسلات بينه وبينهم في طلب التسليم إليه وايمانهم وصيانة أموالهم ، فوقع الاحتجاج منهم بأن هذا أمر لا يمكنهم الدخول فيه إلا بعد انقطاع آمالهم من الناصر لهم ، والمعين على من يقصدهم . وحملوا ما أمكنهم من التحف والمال ، ثم استمهلوا فأمهلوا . ثم رتب نور الدين بعض العسكر للاقامة عليها والمنع لمن يصل إليها ، ونهض في باقي العسكر إلى ناحية أفامية لمنازلتها ومضايقتها . فالتمسوا الأمان

---

١ – انظر الأتابكة ص ١٧٨ – ١٧٩ .

٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٠ .

٣ – واسمه ريموند . انظر :

W. B. Stevenson: The Crusades in the East, Cambridge, 1907 p. 165 .
See also : H. A. R. Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades, London, 1932, p. 292 .

وأمنوا على أنفسهم ، وسلموا البلد في ثامن عشر ربيع الأول ، وانكفأ نور الدين في عسكره إلى ناحية أنطاكية ، وقد انتهى الخبر بنهوض الفرنج من ناحية الساحل إلى صوب أنطاكية لانجاد من بها ، فاقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية وموادعتهم ، وتقرر أن يكون ما قرب من الأعمال الحلبية له ، وما قرب من أنطاكية لهم ، ورحل عنهم إلى جهة غيرهم ، بحيث كان قد ملك في هذه النوبة مما حول أنطاكية من الحصون والقلاع والمعاقل ، وغيرها ، الغنائم الجمة »[1] .

أما ابن الأثير ، فإنه يورد الواقعة كما يلي :«سار نور الدين إلى حصن حارم ، وهو للفرنج ، فحصره وخرّب ربضه ونهب سواده ، ثم رحل عنه إلى حصن « إنّب » فحصره ، فاجتمعت الفرنج مع البرنس صاحب أنطاكية وساروا إليه ليرحلوه عن حصن « إنّب » فلم يرحل ، بل لقيهم وتصافّ الفريقان ، واقتتلوا وصبروا ، وظهر من نور الدين من الشجاعة والصبر في الحرب على حداثة سنّة ، ما تعجّب منه الناس . وانجلت الحرب عن هزيمة الفرنج ، وقتل المسلمون منهم خلقاً كثيراً . وفيمن قتل ، البرنس ، صاحب أنطاكية ، وكان عاتياً من عتاة الفرنج ، وذوي التقدم فيهم والمال... وأكثر الشعراء مدح نور الدين وتهنئته بهذا الفتح ، وقتل البرنس . وممن قال فيه ، القيسراني الشاعر من قصيدة أنشده إياها بجسر الحديد الفاصل بين عمل حلب وعمل أنطاكية »[2] .

وقصيدة القيسراني هذه ، كما يوردها أبو شامة من أطول قصائده التي وصلتنا ، إذ تحتوي على اثنين وخمسين بيتاً أولها :

هذي العزائم لا ما تدّعي القضب وذي المكارم لا ما قالت الكتب

ولا يملك القارىء وهو يستعرض أبيات القصيدة ، إلا أن يستذكر

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٥٠ – ١٥١ .

٢ – الأتابكة ص ١٧٧ – ١٧٨ .

قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ، التي يكاد الشاعر ينتسخ صورها ومعانيها انتساخاً ، فضلاً عن بحرها وقافيتها ، وإن كان قد مزج فيها صور أبي تمام بصور أبي الطيب المتنبي التي تضمّنتها قصيدته المشهورة في قلعة الحدث، والتي مطلعها :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

فلا غرابة إذن أن نجد القصيدة حافلة بإيحاءات الضخامة والفخامة والعنف كما في قول الشاعر :

يا ساهد الطرف والأجفان هاجعة وثابت القلب والاحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالافرنج راجفة فؤاد رومية الكبرى لها يجب
قل للطغاة وان صمّت مسامعها قولا لصمّ القنا في ذكره أرب
ما يوم «إنّب» والأيام دائلة من يوم «يغرا» بعيد لا ولا كثب

ومن نافلة القول ، أن روحاً إسلامية دافقة قد تخلّلت القصيدة التي تصف النصر الكبير :

غضبت للدين حتى لم يفتك رضا وكان دين الهدى مرضاته الغضب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسباً من الملوك ، فنور الدين محتسب
كذاك من لم يوقّ الله مهجته لا قى العدا والقنا في كفه قصب
إلا تكن أحد الأبدال في فلك التقوى فلا نتمارى انك القطب

والإشادة بنور الدين ملكاً صالحاً تقيّاً مجاهداً شجاعاً ، يقابلها غمز حكام المسلمين الآخرين ، الذين لا يقومون بما يقوم به نور الدين :

هذا ، وهل كان في الإسلام مكرمة إلا شهدت وعبّاد الهوى غيب

ومع أن الشاعر ، وهو يتصوّر المعركة ، قد تحدث عن أدواتها وما يمكن أن يكون قد وقع فيها من قتال ، إلا أنه مع ذلك ، لم يقدّم لنا صورة معركة

محددة تختلف عن المعارك الأخرى ، لا سيما أن مبالغاته واحتفاله الزائد بالألفاظ قد أضعفتْ سمة الواقعية في قصيدته ، اللهم إلا ما كان من ذكره لقتل « البرنس » صاحب أنطاكية ، وايراده اسم المعركة (انّب) :

فملكوا سلب « الابرنز » قاتله وهل له غير أنطاكية سلب ؟

وهنا يوغل الشاعر في التشفي بالمقتول والسخرية منه ، فيقول :

من للشقيّ بما لاقت فوارسه وإنْ بسائرها من تحته قتب
عجبت للصعدة السمراء مثمرة برأسه ان إثمار القنا عجب
سما عليها سمو الماء أرهقه أنبوبه في صعود أصلها صبب
إذا القناة ابتغت في رأسه نفقاً بدا لثعلبها من نحره سرب

وابن القيسراني ، الذي شهد في فترة طويلة من حياته ضعف المسلمين وموقف الدفاع الضعيف الذي وقفوه من الغزاة أولاً ، لن تفوته الآن ملاحظة الصورة الجديدة الباعثة على الثقة والأمل :

كنا نعد حمى أطرافنا ظفرا فملّكتك الظبا ما ليس تحتسب
عمّت فتوحك بالعدوى معاقلها كأن تسليم هذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق كما التوى بعد رأس الحية الذنب

وما دام العدو ينهزم أمام نور الدين على هذه الشاكلة ، فلينتهز الفرصة لاستخلاص الأقصى ومدن الساحل :

فانهض إلى المسجد الأقصى بذي لجب يوليك أقصى المنى فالقدس مرتقب
وائذن لموجك في تطهير ساحله فانما أنت بحر لجّهُ لجب
يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة من الظبى عن ثغور زانها الشنب
ما زلت تلحق عاصيها بطائعها حتى أقمت وأنطاكيّةٌ حلب

هكذا حاول الشاعر أن يسجل هذه الواقعة بشعره ، ومع أنه أعطى

بعض ملامح لها . إلا أنه سجل أكثر من ذلك ، مشاعر الاعجاب التي يكنّها لسيده نور الدين . وانفعالاته الخاصة ازاء الأحداث . وقد لا نلوم الشاعر لانتهاجه هذا النهج . ولكن جنوحه إلى المبالغة حوّل القصيدة إلى شعر فخر وحماسة . بدلاً من أن تكون وصفاً واقعياً لمناظر حقيقية . وطابع المبالغة المفرطة . يمكن تبيّنه في ختام القصيدة حيث ينوّه الشاعر بممدوحه في قوله :

أجريت من ثغر الاعناق أنفسها ... جرْيَ الجفون امترّاها بارح حصب
وما ركزت القنا الا ومنك على ... جسر الحديد هزبر غيله أشب
فاسعد بما نلته من كل صالحة ... يأوي إلى جنة المأوى لها حسب
إلا تكن أحد الابدال في فلك التقوى فلا نتمارى أنك القطب
فلو تناسب افلاك السماء بها ... لكان بينكما من عفة نسب
هذا، وهل كان في الإسلام مكرمة ... إلا شهدت وعبّادُ الهوى غيب

* * *

ويورد أبو شامة قصيدة ثانية لابن القيسراني في نور الدين . ذكر أنه أنشده إياها بظاهر حلب . وقد كسر الافرنج على « يغرا » وهزمهم إلى حصن حارم ؛ وقد كانت الفرنج هزمت المسلمين أولاً بهذا الموضع[1] . وقد أورد أبو شامة هذه القصيدة في حوادث سنة ٥٤٣ هـ . ولا بد أن يكون قد وهم في ذلك . لأن الإشارة الصريحة في القصيدة إلى وقعة « إنّب » الآنفة الذكر . وإلى قتل « الابرنز » ورفع رأسه على سنان الرمح ، ترتبط كلها بأحداث سنة ٥٤٤ هـ وليس بوقعة « يغرا » التي حدثت سنة ٥٤٣ هـ .

والقصيدة التي يوردها أبو شامة تقع في تسعة عشر بيتاً وتبدأ بقول الشاعر :

تفي بضمانها البيض الحداد ... وتقضي دَيْنَها السمر الصعاد

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٦ .

وتدرك ثأرها من كـل باغ فوارس من عزائمها الجـلاد[1]

وكلا البيتين يوحي بأن النصر الذي يتغنى به الشاعر جاء بعد هزيمة تعرّض لها ممدوحه من قبل .

وعلى الرغم من أن التركيز على شخص البطل ظاهر في غيرما بيت ، إلا أننا نجد الشاعر في هذه القصيدة لم يغفل المجهود الجماعي لرجال الجيش كما في البيت الثاني من البيتين السابقين ، وكما في قوله :

وجند كالصقور على صقور إذا انقضّوا على الأبطال صادوا
إذا اخفوا مكيدتهم أخافوا وان أبدوا عداوتهم أبـادوا

ولا ينسى ابن القيسراني – كما لم ينس المتنبي في القرن الرابع الهجري – أن مجاهدة بطله لاعداء دولة الخلافة ، إنما هي نصرة لتلك الدولة ، ينبغي التنويه بها بقوّة :

ونصرة دولة دافعت عنها وهل يخشى وأنت لها عماد

وأما الاشارة الصريحة إلى الواقعة وإلى الحدث الكبير الذي شهدته – قتل « الابرنز » – صاحب أنطاكية ، فترد في قول الشاعر :

وان تتلُ القوافي ما تلتـه بإنّب ما يؤنبهـا سـناد
وللأبرنز فوق الرمح رأس توسّد والسنان له وسـاد
ترجّل للسـلام ففـرّسوه وليس سوى القناة له جواد
غضيض المقلتين ولا نعاس وغائرها وليس به سهاد

والصورة التي تنقلها الأبيات السابقة للقائد الصليبي القتيل ، فيها من الشماتة والقسوة ما لا يحتاج إلى توضيح .

ولئن كانت المشاعر الجامحة التي تولدها الحروب والحديث عنها ، تدعو

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٤٦ .

إلى الاندفاع والمبالغة في الوصف والقول ، فإن نظر ابن القيسراني الدائب كذلك إلى صور المتنبي المفرطة في الجموح في قصائده الحربية — كما سنرى بالتفصيل في الفصل اللاحق — من العوامل التي تغري الشاعر بالغلوّ في تصوّراته ، كأنْ يقول :

أحطت بهم فكـان القتل صبرا ولا طعن هناك ولا طـراد

وهو قول يذكر بما قاله المتنبي في سيف الدولة الذي كان يقارع الروم في شمال الشام :

ألقتْ إليك دماء الروم طاعتها فلو دعوت بلا ضرب أجاب دم[1]

والشاعر في هذه القصيدة ينظر إلى المستقبل ، ومن خلال همة ممدوحه ، بأمل وثقة كبيرين :

فسر واستوعب الدنيا فتوحا فلا هضب هناك ولا وهادُ
وزر ببني الوغى مثوى حبيب فما عن باب مسلمةٍ ذياد
ولا في باب فارس غير ثكلى بفارسها يضيء بهـا الحداد
لأنطاكية يحمي ذراهـا وقد دانت لسطوتك البلاد
وأذعنت الممالك واستجابت ملبيـة لدعوتك العبـاد

* * *

ويورد صاحب « الخريدة » قصيدة من خمسة وأربعين بيتاً ، نظمها ابن القيسراني في مدح نور الدين عام ٥٤٤ ، ويقدم لها بالأسطر التالية[2] : وله — ابن القيسراني — في مدح الملك الغازي نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام سنة أربع وأربعين وخمسمائة قصيدة استحسنتها في فنّهـا لسلاستها في نظمها ورويتها ووزنها ، فكأنها عروس أبرزت من كنّها ،

١ — ديوان المتنبي ، شرح اليازجي ط دار صادر بيروت ١٩٦٤ ج ٢ ص٢٦٧.
٢ — الخريدة ، قسم شعراء الشام ج ١ ص ١١١ .

أو ديمة وطفت من مزنها ، أو روضة أنف في حسنها وهي :

أبدى السلو خديعةً لّلائم وحنا الضلوع على فؤاد هائم

ولم يورد صاحب « الروضتين » من هذه القصيدة إلا ثمانية أبيات[1] ، في حين أورد ياقوت في معجم الأدباء أربعة أبيات منها فقط[2] ، وكان من الممكن إغفال هذه القصيدة ، باعتبارها قصيدة مدح ، لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بالحروب الصليبية . غير أنها احتوت على أبيات ترسم معالم شخصية نور الدين ، بوصفه أعظم مجاهد للصليبيين في زمنه ، ولذا فإن ايرادها على هذا الأساس ، لا يبدو خارجاً عن مادة هذا البحث .

ولن يفوت القارىء لهذه القصيدة ، أنها خلافاً لقصائد ابن القيسراني الحربيّة المحضة ، تبدأ بمقدمة غزلية طويلة ، تستوعب ثلاثة عشر بيتاً . يعمد الشاعر بعدها إلى أن يتخلص بحذق من الغزل إلى المديح ، وذلك حين يقول في البيتين الثالث عشر والرابع عشر :

يا أيها المغري بأخبار الهوى لا تخدعنّ عن الخبير العالم
اسأل فديتك بالصبابة لمتي واسأل بنور الدين صدر الصارم[3]

وتضم القصيدة في أبيات متتابعة ، عدداً من فضائل الحرب المنسوبة إلى نور الدين ، مثل إلفته بالقسيّ والرماح والخيل والسيوف ، وتحليه بالشجاعة والحزم :

ومعطّفات ترتمي بأجنّة ومثقفات تهتدي بلهاذم
ومسوّمات لست تدري في الوغى بقوائم يدركن أم بقوادم
كل ابن سابقة إذا ابتدر المدى فلغير غرّته يمين اللاطم

---

١ – كتاب الروضتين ج ١ ق ١ ص ٤٩ .
٢ – معجم الأدباء مطبوعات دار المأمون ، مصرج ١٩ص ٧٩ .
٣ – الخريدة ج ١ ص ١١٢ .

يرمي بفارسه أمام طريـده حتى يرى المهزوم خلف الهازم
ينحى إلى ملك إذا قسم الندى والبأس ، كان المكتني بالقاسم
متسربل بالحزم ساعة تلتقي حلق البطان عـلى جواد الحازم
ما بين منقطع الرقاب وسـيفه إلا اتصال يمينـه بالقـائم[1]

ويعاود ابن القيسراني في هذه القصيدة مقارنة حال البلاد زمن نور الدين ، بحالها في عهد المفرّطين من حكام المسلمين :

سام الشآم ويا لها من صفقة لولاه ما أعيت على يد سائم
ولشمّرت عنها الثغور وأصبحت فيها العواصم وهي غير عـواصم
تلك التي جمحت على من راضها ودعوت فانقادت بغير شـكائم

والبلاد التي يحكمها نور الدين ، بلاد ثغور ، تتعرّض أبداً للغزو ، فمن الحزم إذن أن يحرص على تحصينها في وجه العدو المتربص :

حصّن بلادك هيبة لا رهبة فالدرع من عدد الشجاع الحازم
وارم الأعادي بالعوادي إنها كفلت بغلّ قديمهم والقادم

ولا يحتاج القارىء إلى كبير عناء ، لكي يربط ما بين هذين البيتين وبين قول المتنبي في خيل سيف الدولة المسربلة بالدروع :

لها في الوغى زيّ الفوارس فوقها فكلّ حصان دارع متلثّم
وما ذاك ضنّا بالنفوس على الردى ولكن دفع الشر بالشر أحزم[2]

وعلى الرغم من عزوف ابن القيسراني عن مذهب الشيعة ، فإنه ينساق في غمرة حماسه لأميره إلى ربط شخصية نور الدين بشخصية مهدي الشيعة المنتظر :

---

١ – الخريدة ج ١ ص ١١٢ – ١١٣ .
٢ – ديوان المتنبي ، شرح اليازجي ، دار صادر ج ٢ ص ٨٠ .

وأظن أن الناس لما لم يـروا عدلاً كعدلك أرجفوا بالقائم

والقائم المشار إليه ، هو المهدي المنتظر ، الإمام أبو القاسم الذي ولد سنة ٢٥٦ هـ ، وتغيّب سنة ٢٦٥ هـ ، ويعبرون عنه بصاحب العصر وقائم الزمان[١] :

* * *

ومما يرتبط ارتباطاً حقيقياً بالمعركة ضد الصليبيين ، المحاولات المتكررة التي قام بها عماد الدين زنكي ، ثم ولده نور الدين ، لضم دمشق إلى حلب ، ومن ثمّ ، توحيد الإمارات الشامية الإسلامية ، في ظل دولة زنكية موحدة تقف متماسكة بقوة في وجه الصليبيين .

من أجل ذلك ، نرى أن الشعر المرتبط بمحاولات التوحيد هذه ، يتصل اتصالا حقيقياً بأحداث الحروب الصليبية . ومن هذا الشعر قصيدة لابن القيسراني في عشرين بيتاً ، قيلت بعيد صلح تمّ بين نور الدين وحكام دمشق عام ٥٤٤هـ، بعد أن حاصر نور الدين المدينة فترة من الوقت . وحديث هذا الحصار ، وما عقبه من صلح أورده ابن القلانسي[٢] وسبط ابن الجوزي[٣] وأبو شامة[٤].

ويذكر ابن القلانسي في « ذيل تاريخ دمشق » أن نور الدين قد بلغه افساد الفرنج في الأعمال الحورانيّة بالنهب والسلب ، فعزم على التأهب لقصدهم . وكتب إلى من بدمشق يعلمهم بما عزم عليه من الجهاد ، ويستدعي المعونة على ذلك بألف فارس . وقد كانوا عاهدوا الفرنج على أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين ، فاحتُجّ عليه وغولط . وعلى أثر ذلك ، توجّه نحو دمشق ، وكان حكامها قد راسلوا الافرنج بخبره

---

١ – انظر حاشية الخريدة ج ١ ص ١١٤ .
٢ – انظر ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ – ٣١٠ .
٣ – انظر مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٠٦ .
٤ – انظر الروضتين ج١ ق١ ص ١٧٨ – ١٧٩ .

وقرّروا معهم الانجاد عليه ، وكانوا قد نهضوا إلى ناحية عسقلان لعمارة غزّة ، ووصلت أوائلهم إلى بانياس . وعرف نور الدين خبرهم ، فلم يحفل بهم وقال : لا أنحرف عن جهادهم ، وهو مع ذلك كافّ أيدي أصحابه عن العبث والافساد في الضياع ، وأمر باحسان الرأي في الفلاحين ، والتخفيف عنهم ، والدعاء له مع ذلك متواصل من أهل دمشق وأعمالها ، وسائر البلاد وأطرافها . وكان الغيث قد انحبس عن حوران والمرج والغوطة ، ونزح أكثر أهل حوران عنها للمحل واشتداد الأمر . فلما وصل نور الدين إلى بعلبك ، اتفق نزول المطر يوم الثلاثاء ثالث ذي الحجة (عام ٥٤٤ هـ) ، وأقام إلى مثله ، فروّى الآكام والوهاد ، وجرت الأودية ، وزادت الأنهار وامتلأت برك حوران ، ودارت أرحيتها . وعاد ما صوّح من النبات والزرع غضاً طرياً ، وجدّ الناس بالدعاء لنور الدين ، وقالوا هذا ببركته وحسن معدلته وسيرته .. ثم أرسل نور الدين إلى مجير الدين صاحب دمشق وإلى وزيره يقول : انني ما قصدت بنزول هذا المنزل طلباً لمحاربتكم ولا منازلتكم وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكاية المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الافرنج ، وعدم الناصر لهم . ولا يسعني ، مع ما أعطاني الله ، وله الحمد ، من الاقتدار على نصرة المسلمين وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجال أن أقعد عنهم ولا انتصر لهم ، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها . و التقصير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالافرنج على محاربتي ، وبذلكم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعيّة . ظلماً لهم وتعدّياً عليهم . وهذا ما لا يُرضي الله تعالى ولا أحداً من المسلمين ، ولا بدّ من المعونة بألف فارس مُزاحي العلة ، تجرّد مع من يوثق بشجاعته من المقدّمين ، لتخليص ثغر عسقلان وغزّة..

فكان الجواب عن هذه الرسالة : ليس بيننا وبينك إلا السيف ، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك ان قصدتنا ونزلت إلينا . فلما عاد الرسول بهذا الجواب ووقف عليه ، أكثر التعجّب منه والإنكار له ، وعزم على

الزحف إلى البلد ومحاربته في غد ذلك اليوم ، فأرسل الله من الأمطار وتداركها ودوامها ما منعه من ذلك ...

وفي مستهلّ المحرّم (من عام ٥٤٥ هـ) ، تقرّر الصلح بين نور الدين وأرباب دمشق . والسبب في ذلك أن نور الدين أشفق من سفك دماء المسلمين إنْ أقام على حربها والمضايقة لها ، بعدما اتصل به من أخبار دعته إلى ذلك . واتفق أنهم بذلوا له الطاعة واقامة الخطبة له على منبر دمشق بعد الخليفة والسلطان ، وكذا السكّة ووقعت الأيمان على ذلك[1] ...

في هذا الصلح نظم ابن القيسراني قصيدة يهنيء فيها نور الدين ابتدأها بقوله :

لك الله إن حاربت فالنصر والفتح وإن شئت صلحاً عُدّ من حزمك الصلح[2]

وقد عرض الشاعر النتيجة التي تمخّض عنها خصام الحاكمين المسلمين عرض مُحَبِّذٍ مستحسِنٍ للصلح والوفاق :

وهل أنت إلا السيف في كل حالة فطوراً له حدّ وطوراً له صَفْحُ
وما كان كفّ العزم إلا إشارة إلى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح
وقد علم الأعداء مذ بتّ جانحا إلى السّلم ما تنوي بذاك وماتنحو

. . .

صبرت فكان الصبر خير مغبّة فسيق إليك الملك يسعى به النجح

ولا يترك الشاعر شكاً في نفس القارىء في أنه كان يدرك بوضوح أن وحدة الصف تعني نهاية العدو الطارىء على البلاد ، فهو يخبرنا بصراحة

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص ٣٠٨ – ٣١٠ . وقد اقتبس أبو شامة حديث ابن القلانسي في « الروضتين » ج١ ق١ ١٧٧ – ١٧٩ .

٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ١٨٠ .

ووضوح ، ان اتحاد جنوب الشام ممثلاً في دمشق ، مع شماله ممثلاً في حلب ، معناه الفناء لمغتصبي بيت المقدس :

إذا ما دمشق ملّكتْكَ قيادها ... تيقّن من في « إيليا »[1] أنه الذبح
متى التفّ نقع الجحفلين على الهدى ... فلا مَهْمَهٌ يحوي الضلال ولا سفح
إذا سار نور الدين في الجيش غازياً ... فقولا لليل الإفك قد طلع الصبح
تركت قلوب الشرك تشكو جراحها ... فلا زالت الشكوى ، ولا اندمل الجرح

وربما كانت وحدة دمشق وحلب ، تعني بالنسبة إلى القيسراني شيئاً يتصل بمشاعره الشخصية ، فوق أنها لمصلحة الأمة ، وذلك لأن حياته بعد جلائه عن قيسارية قد توزعت ما بين دمشق وحلب ، مما جعل لكلتا المدينتين في نفسه مكانة خاصة .

وإذا كان نور الدين يمثل التجسيد الحيّ للآمال الإسلامية في تلك الفترة ، فلا غرو أن يركّز الشاعر على شخصه في كل قصيدة تروي عملاً من أعماله وتمجّده :

بدولتك الغرّاء أصبح ضدّها ... بهيما ولولا الحسن ما عرف القبح
وكم من قريح القلب لو بات واردا ... موارد هذا العدل ما مسّه قرح
بك ابتهج الألباب وانتهج الحجا ... وأثمرت الآداب واطرّد المدح
ولاذت بك التقوى وعاذت بك العلا ... ودانت لك الدنيا وعزّ بك السرح
فلا قلب إلا قد تملكْتَهُ هوى ... ولا صدر إلا قد جلاه لك النصح

* * *

وفي أحداث عام ٥٤٥ هـ ، يورد ابن القلانسي[2] وابن الأثير[3] وسبط

---

١ – ايليا : القدس .
٢ – ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٠
٣ – الكامل ج ١١ ص ١٠١ – ١٠٢ ، الأتابكة ص ١٨٢ – ١٨٤ .

ابن الجوزي[1] وابن واصل[2] وأبو شامة[3] وياقوت[4] أنباء انتصارات كبيرة أحرزها نور الدين بعد أسر الأمير الصليبي «جوسلين» ، صاحب القلاع الواقعة شمالي حلب . ويذكر أبو شامة أن نور الدين سار إلى بلاد جوسلين . وهي القلاع التي شمالي حلب ، منها تل باشر وعين تاب ، وعزاز وغيرها من الحصون فجمع «جوسلين» الفرنج ، فارسهم وراجلهم ، ولقوا نور الدين ، وكانت بينهم حرب شديدة ، انجلت عن انهزام المسلمين وظَفَر الفرنج ، وأخذ «جوسلين» سلاح دار (حامل سلاح الأمير) كان لنور الدين أسيراً ، وأخذ ما معه من السلاح ، فأنفذه إلى السلطان مسعود بن قيلج أرسلان السلجوقي صاحب «قونية» . وكان نور الدين قد تزوج ابنته . وأرسل مع السلاح إليه يقول : «قد أنفذت إليك بسلاح صهرك ، وسيأتيك بعد هذا غيره» . فعظمت هذه الحادثة على نور الدين ، وأعمل الحيلة على «جوسلين» وعلم أنه إنْ هو جمع العساكر الإسلامية لقصده ، جمع «جوسلين» الفرنج وحذر وامتنع[5] . ثم يتحدث أبو شامة عن اتفاق ما بين نور الدين وجماعة من التركمان على أسر «جوسلين» انتهى بالفعل إلى وقوع «جوسلين» في أيدي التركمان ، ومن ثمّ في يد نور الدين . ويصف أبو شامة أسره بأنه من أعظم الفتوح على المسلمين «فإنه كان شيطاناً عاتياً من شياطين الفرنج ، شديد العداوة للمسلمين ، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم ، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه ، وشدّة عداوته للملّة الإسلامية ، وقسوة قلبه على أهلها . وأصيبت النصرانية كافة بأسره . وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها .

---

١ – مرآة الزمان ج ٨ ص ٢٠٢ – ٢٠٦ .

٢ – مفرج الكروب ج١ ص ١٢٤ – ١٢٥ .

٣ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٣ – ١٨٤ .

٤ – معجم الأدباء ج ١٩ ص ٦٥ .

٥ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٣ – ١٨٤ .

وسهل أمرهم على المسلمين بعده . وكان كثير الغدر والمكر ، لا يقف على يمين ، ولا يفي بعهد ... فلما أُسر ، فتح كثير من بلادهم وقلاعهم ، فمنها عين تاب وعزاز ، وقورس ، والراوندان ، وحصن البارة ، وتل خالد ، وكفر لاثا ، وكفر سود وحصن بسرقوث بجبل بني عليم ، ودلوك ومرعش ، ونهر الجوز ، وبرج الرصاص ... وقال الشعراء في هذه الحادثة فأكثروا ، منهم القيسراني ، قال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق ، واستقرار أمرها ، ويذكر قتل « البرنز » وأسر جوسلين وأخذ بلاده »[1] .

ويورد أبو شامة بعد ذلك قصيدة ابن القيسراني في واحد وخمسين بيتاً ، استوعبت ، كما يبدو ، جميع أبيات القصيدة[2] ، في حين أورد ياقوت في معجم الأدباء تسعة وثلاثين بيتاً منها[3] ، وأورد العماد الأصفهاني في « الخريدة » أربعة وعشرين بيتاً[4] .

وتبدأ القصيدة بقول الشاعر :

دعا ما ادعى من غرّه النهي والأمر فما الملك إلا ما حباك به القهـر

والمطلع ، كما هو واضح ، يوحي بشعور التفوّق ، والإيمان بالقوة سبيلاً إلى احتياز البلدان وتملكها .

ولا تروي القصيدة قصة معركة واحدة ، بل هي ، كما قال أبو شامة في التقدمة لها ، في مدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق ، واستقرار أمرها ، وتحتوي ذكر قتل « البرنز » (صاحب أنطاكية) وأسر جوسلين وأخذ بلاده . ومعنى ذلك أنها استعراض لمجموعة من انتصارات نور الدين . فبعد أن يقدم الشاعر لقصيدته بمقدمة من أربعة أبيات ، جمعت ما بين النهج

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٣ – ١٨٥ .
٢ – المصدر نفسه ص ١٨٥ – ١٨٨ .
٣ – معجم الأدباء ج ١٩ص ٦٥ – ٧٠ .
٤ – الخريدة ج١ ص ١٥٧ – ١٥٩ .

الحكمي المرتبط فحوىً بظروف القصيدة وموضوعها ، وما توحيه تلك الظروف من شعور بالمنعة والقوة ، ينتقل إلى الثناء على بطله نور الدين . منطلقاً من موقفه من دمشق ، التي اعترفت بتبعيتها له . وموقف الأعزاز للمدينة التي قضى الشاعر فيها فترة طويلة من حياته ، يستبين بصورة واضحة من خلال ثلاثة عشر بيتاً متلاحقة ، ساقها ابن القيسراني في دمشق وعلاقة نور الدين الجديدة بها :

ليهن دمشقاً أنّ كرسيّ ملكها ... حُبي منك صدرا ضاق عن همه الصدر
وأنك نور الدين مذ زرت أرضها ... سمت بك حتى انحطّ عن نسرها النسر
خطبت ، فلم يحجبك عنها وليّها ... وخطب العلا بالسيف مادونه ستر
جلاها لك الإقبال حوريّة السنا ... عليها من الفردوس أردية خضر
خلوب ، أكنّت من هواك محبّة ... نمت . فانتمت جهراً ، وسرّ الهوى جهر
فسقت إليها الأمن والعدل نحلة ... فأمست ولا أسر تخاف ولا إصر
فإن صافحت يمناك من بعد هجرها ... فأحلى التلاقي ما تقدمه هجر
وهل هي إلا كالحصان تمنعت ... دلالاً . وإن عزّ الحيا وغلا المهر
ولكن إذا ما قستها بصداقها ... فليس له قدر وليس لها قدر
هي الثغر ، أمسى بالكراديس عابساً ... وأصبح عن باب الفراديس يفترّ
على أنها لو لم تجبْكَ إنابةً ... لأرهقها من بأسك الخوف والذعر
فأما وقفت الخيل ناقعة الصدى ... على بردى من فوقها الورق النضر
فَجِنْ بعد ما أوردتَها حومة الوغى ... وأصدرْتَها والبيض من علق حمر

وينتقل الشاعر بعد الحديث عن دمشق إلى نصر سابق كبير كان نور الدين قد أحرزه في وقعة « إنّب » على صاحب أنطاكية وهو النصر الذي سبقت الاشارة إليه والذي انجلى عن قتل صاحب أنطاكية :

فلا ينتحلْ من بعدها الفخرَ دائل ... فمن بارز « الابرنز » كان له الفخر
ومن بز « أنطاكيةً » من مليكها ... أطاعتْه ألحاظ المؤللة الخُزْر

وبعد أن يعالج ابن القيسراني وقعة « انّب » تلك ، وما تمخضت عنه في تسعة أبيات ، ينتقل إلى آخر الأحداث العسكرية : أسر « القمص جوسلين » :

كما أهدت الأقدار للقمص أسره ... وأسعد قرن من حواه لك الأسر
طغى وبغى عـدواً على غُلَوائه ... فأوبقه الكفران : عدواه والكفر
وألقت بأيديها إليك حصونـه ... ولو لم تجيء طوعاً لجاء بها القسر
وأمست عزاز كاسمها بك عزّةً ... تشق على النسرين لو أنهـا الوكر

وكما عودنا ابن القيسراني ، فإن كل نصر كان يحرزه ممدوحه ، كان حافزاً لنداء يوجهه الشاعر إلى الممدوح لاستخلاص القدس وساحل الشام المحتلّ :

فسر واملأ الدنيا ضياء وبهجـة ... فبالأفق الداجي إلى ذا السنا فقر
كأني بهذا العزم ، لا فلّ حـده ... وأقصاه بالأقصى وقد قضي الأمر
وقد أصبح القدس المقدس طاهرا ... وليس سوى جاري الدماء له طهر
وقد أدت البيض الحداد فروضها ... فلا عهدة في عنق سيف ولا نذر
وصلت بمعراج النبي صوارم ... مساجدها شفع وساجدها وتـر
وان يتيمم ساحل البحر مالكا ... فلا عجب أن يملك الساحل البحر

ولا عجب كذلك ، بعد التغني بهذه الأمجاد التي حققها نور الدين ، أن يركّز الشاعر مديحه الدافق على شخصيّة نور الدين ، فيبرز مزايا البطل من جميع النواحي . وهو إذ يقول فيه :

ولو لم يسر في عسكر مـن جنوده ... لكان له في نفسه عسكر مجـر

فإنه يكاد يردد قول أبي تمام في المعتصم :

لو لم يقد جحفلا يوم الوغى لغدا ... من نفسه وحدها في جحفل لجب[1]

---

١ – ديوان أبي تمام تحقيق محمد عبده عزام ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤ ج ١ ص٥٩ .

وإذ يضع الشاعر ممدوحه في هالة اسلامية مشرقة ، بعد هذه الانتصارات ، فإنه كان يعبّر عن شعور المسلمين عامّة :

مليكٌ سمتْ شُمّ المنابر باسمه ... كما زهيت تيها به الأنجم الزهر
فيا كعبة ما زال في عر صاتها ... مواسم حج لا يروعها النفر
خلعت على الأيام من حلل العلا ... ملابس من أعلامها الحمد والشكر

ومن السهل أن تجرّ المفاضلة ما بين حاكم وحاكم ، إلى المفاضلة ما بين بلد وبلد :

وتوّجْتَ ثغر الشام منك بجلالة ... تمنّت لها بغداد لو أنها ثغر
فلا تفتخر مصر علينا بنيلها ... فيمناك نيل كل مصر بها مصر

وشتّان ما بين عهد نور الدين الحافل بالجهاد ، الخاضد لشوكة الصليبيين ، وبين عهد سابق كان الصليبيون فيه موضع خشية ورهبة :

رددت الجهاد الصعب سهلا سبيله ... ويا طالما أمسى ومسلكه وعر
وأطمعت في الافرنج من كان بأسه ... تخوّف أن يعتاده منهم فكر
وأقحمت جرد الخيل أعلى حصونها ... ولولاك لم يهجم على كافر كفر

ويحاول ابن القيسراني في ختام قصيدته ، أن ينوّه بشعره ، كما كان يفعل المتنبي في العديد من قصائده الطنانة ، فها هو يقول :

ومن يدّعي في قتلك الشرك شركة ... إذا لم يكن عند القوافي له ذكر
هي القانتات الحافظات فروجها ... فشاهدها عدل ورائقها سحر
ولو لم يكن في فضلها وكمالها ... سوى أنها من بعد عمر الفتى عمر

ومن الإنصاف لابن القيسراني ، أن نذكر هنا أن الرجل لم يتعرض في قصيدته ، تصريحاً أو تلميحاً ، لطلب عطاء ، بل كان انساناً مسلماً ، يعبّر تعبيراً صادقاً عن أحاسيسه وأحاسيس المسلمين عامة .

وفي نطاق حوادث سنة ٥٤٥ هـ ، أورد أبو شامة في « الروضتين » قصيدة أخرى من تسعة وثلاثين بيتاً لابن القيسراني ، اكتفى في تقديمه لها بهذه العبارة القصيرة :

« وله من قصيدة يصف فيها وقائعه أولها ... »[1] وإذ نقرأ القصيدة ، نحس أنها قصيدة مدح لنور الدين ، عرّج فيها الشاعر على وقائعه المختلفة ، وليست قصيدة حربيّة عرّج فيها الشاعر على مناقب ممدوحه . ولعلّ طابع المدح الغالب عليها ، يفسر هذه المقدمة الغزلية للقصيدة ، بما تحمل من حنين وذكريات عاطفية رقيقة :

أما وخيال زار ممّن أحبّه ... لقد هاج من ذكراه ما لا أغبّه
إذا ما صبا قلب المحب إلى الصبا ... ذكرت نسيماً بالثغور مهبّه
فيا نفحات الشام رفقاً بمهجة ... يحامي عليها مدنف القلب صبّه
فلا تسألنّ الصبّ أين فؤاده ... فإن فؤاد المرء مع من يحبه

وقد تكون مقدمة الحنين والاستذكار هذه ، متناسقة نفسياً مع استذكار الشاعر لوقائع سابقة لنور الدين ، إذ أن الاستذكار في الحالتين ، ينتقل بالذهن إلى أحداث وأماكن وأشخاص كانت مبعث رضا لنفس الشاعر .

وحين يتخلّص ابن القيسراني بحذق مخطط من الغزل إلى المدح ، يجمع في أبيات متلاحقة مآثر نور الدين الكبرى ، وذلك حين يقول في التنويه بكرم ممدوحه وشجاعته وتقواه :

تولّد بين الغيث والليث والتقى ... منافسه ، أي الثلاثة تِربُه ؟
يعدّ مضاء في الظبا . لا وضربه ... بها قلل الأعداء ما السيف ضربه
مكين الحجا أرضى الزمان بنفسه ... إلى الآن حتى لان وانقاد صعبه
حمى قبّة الإسلام بالخيل فاغتدت ... وأوتادها جرد الطعان وقبّه

---

١ — كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ١٨٨ .

ومن ثمّ ينتقل إلى تعداد وقائع نور الدين في الرّها وصرخد والعريمة وعلى نهر العاصي ، وإنّب ، حيث قتل صاحب أنطاكية الصليبي ، ثمّ إلى أسرِ القمص (جوسلين) ، وافتتاح عزاز وتلّ باشر .

وكأنّ الشاعر ، وقد عدّد كل هذه الانتصارات ، قد استمدّ الحافز القوي لأن يهتف قائلاً :

فقل للملوك الخافقين نصيحة ... كذا عن طريق الليث يزأر غلبه
وخلّوا عن الآفاق فالشرق شرقه ... بحكم الردينيات والغرب غربه !

وبلاء نور الدين في الدفع عن بلاد الشام ، إنما هو امتداد لبلاء أبيه عماد الدين في استرداد أرض الشام من العدو :

أبوك استرد الشام بالسيف عنوة ... وللروم بأس طالما غال خطبه

ونور الدين لا يقاتل من أجل متاع دنيوي زائل ، وإنما يذب عن دين الله ، لأنه من حزب الله :

إذا ذبّ عن أضغاث دنياه مالك ... فأنت الذي عن حوزة الدين ذبّه
رأيت اتباع الحق خيرا مغبّة ... فأفرجت عن رأي يسرّك غبّه
وأوضحت ما بين الفريقين سنّة ... بها عرف المربوب من هو ربه
وبيّنت ما قد كان من كان يبتغي ... دليلا بأن الله من أنت حزبه

* * *

وفي حوادث سنة ٥٤٦ هـ ، أورد ابن القلانسي وسبط ابن الجوزي وأبو شامة حديث حصار آخر فرضه نور الدين على دمشق . وموجز الحديث أن نور الدين حاصر دمشق لمعاضدة أهلها الفرنج واستنصارهم بهم ، فنزل عسكر نور الدين في عاشر المحرّم على ضواحي المدينة ، فانبثّت أيدي المفسدين من العسكر الدمشقي في زروع الناس ، فحصدوها ، وتحرّك السعر ، وانقطعت السابلة ، ووافت رسل نور الدين إلى ولاة البلد ، ونقلت عنه قوله : « أنا

ما أوثر إلاّ اصلاح أمر المسلمين وجهاد المشركين وخلاص من في أيديهم من الأسارى . فإن ظهرتم معي في عسكر دمشق وتعاضدنا على الجهاد ، فذلك المراد »[1] .

فلم يعد الجواب إليه بما يرضاه . ومن ثمّ واصل حصار المدينة ، ولم يزحف إليها اشفاقاً من قتل الناس . ووصلت الأخبار باحتشاد الفرنج واجتماعهم لانجاد دمشق ، فضاقت صدور أهل الصلاح ، وزاد انكارهم لمثل هذه الأحوال . وتواصل الارجاف بقرب عساكر الافرنج من البلد ، فحرّك نور الدين من عسكره فريقاً ليكونوا في أعمال حوران مع العرب للتصدي للافرنج ولقائهم . وفي ثالث ربيع الأول دخل خلق كثير من الافرنج إلى البلد لقضاء حوائجهم ، وخرج مجير الدين صاحب دمشق ووزيره مؤيد الدين المسيّب بن الصوفي عندئذ في خواصهما وجماعة من الرعيّة ، واجتمعوا بملكهم وخواصّه ، واتفقوا على نزول العسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال أعماله ، ولكنهم عادوا خاسرين ، فانكفأ عسكر الافرنج ، وراسلوا مجير الدين ومؤيد الدين يطلبون منهما بقية المال الذي كان حكام دمشق قد وعدوهم به مقابل ترحيل نور الدين عن المدينة ! وعاد نور الدين إلى محاصرة دمشق ، ووقعت المناوشة بين الفريقين من غير زحف ولا شدّ في محاربة ، تحرّجاً من قتل المسلمين ، وقال : لا حاجة إلى قتل المسلمين بأيدي بعضهم بعضاً ، وأنا أرفههم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين »[2]

ثم ترددت المراسلات في عقد الصلح مع أهل دمشق ، وتقارب الأمر في ذلك ، إلى أن استقرت الحال على قبول الشروط المقترحة في عاشر ربيع الآخر ... ؛ وفي ثاني عشر رجب ، توجه مجير الدين صاحب دمشق إلى حلب في خواصه ، ووصل إليها ، ودخل على نور الدين ، فأكرمه وبالغ في الفعل

---

١ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٠٠ .

٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٠٣ .

الجميل في حقه ، وقرّر معه تقريرات اقترحها عليه ، بعد أن بذل له الطاعة وحسن النيابة عنه في دمشق ، ورجع إلى دمشق مسروراً سادس شعبان »[1] .

هذه هي القصة الموجزة لحصار دمشق سنة ٥٤٦ هـ . وفي الصلح الذي تمّ بين نور الدين ومجير الدين ، وقدوم الأخير إلى حلب مصالحاً مهادناً ، نظم ابن القيسراني قصيدة في واحد وعشرين بيتاً بدأها بقوله موجهاً الخطاب إلى نور الدين :

وفت لك الدنيا بميعادها باذلة أفلاذ أكبادها[2]

والقصيدة يغلب عليها طابع المديح ، وقد اتخذ مجيء مجير الدين إلى حلب منطلقاً لمدح نور الدين :

وأوفدتْ غُرَّ سلاطينها عليك في همة أنجادها
تبغي سناءً أقصدت قصده طائعة طاعة أجنادها
خاضعة تعتدّ أعمارها يوم التلاقي يوم ميلادها

والقصيدة وثيقة تاريخية ، تثبت توجّه مجير الدين إلى حلب ، والطابع التصالحي فيها واضح لا يخفى ، إذ لا تتضمن القصيدة شعوراً بالمرارة والعداء نحو مجير الدين ، بل ان الحديث عنه لا يخلو من مسحة مودّة :

شامتْ دمشقٌ بك برق العلا فأرسلت أصدق روادها
رأتك نور الدين نار الهدى قد أشرق الأفق بايقادها
فيمّمتْ منك حيا مزنة بيض الأيادي ورد ورادها
فاسأل مجير الدين عن خُبْرِهِ أوردها محمود إيرادها

والشاعر يرى في المصالحة بين دمشق وحلب ، عزّاً لدمشق لا ذلاً لها

---

١ – ذيل تاريخ دمشق ص ٣١٧ . كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٠٨ .

٢ – كتاب الروضتين ج١ ق١ ص ٢٠٨ .

وخضوعاً ، ولذا فهو يصوّره انضواء في دولة صالحة تجتذب إليها الناس ويتحول المعادي لها إلى صديق موالٍ :

تبوأتْ من عزّها قبة سمر القنا أطناب أوتادها
تنافس الناس على دولة فتّ بها أعين حسّادها
يغدو المعادي كالموالي لها فوالها ان شئت أوْ عادِها

أما بقية القصيدة ، فاشادة بنور الدين التقي الشجاع ذي الهمة العالية :

لك المساعي الغرّ يا جامعاً من طرفيها بين اضدادها
يغشى الوغى أفرس فرسانها وفي التقى أزهد زهّادها
فأنت نسكا غيث أبدالها وأنت فتكا ليث آسادها
في أمّة أنت حمى دينها حيناً وحيناً شمس عبّادها

وفي البيت التالي من أبيات القصيدة الأخيرة ، اشارة لا تخفى إلى إبطال نور الدين لبعض عادات الشيعة في حلب ، مما سبقت الاشارة إليه في الصفحات الماضية :

هذا ، وكم من سنّة بدعة أعدمْتَها من بعد ايجادها